الفجر

العدد 16

رجب 1436 / أبريل 2015

مشروعنا السياسي الإسلامي .. زهير سالم

الخطاب الشرعي المعاصر .. عبد الرحمن الكيلاني

البراء المحصِّن.. يمامة الشريف

محمد أمين المصري وكتابه تربية القادة

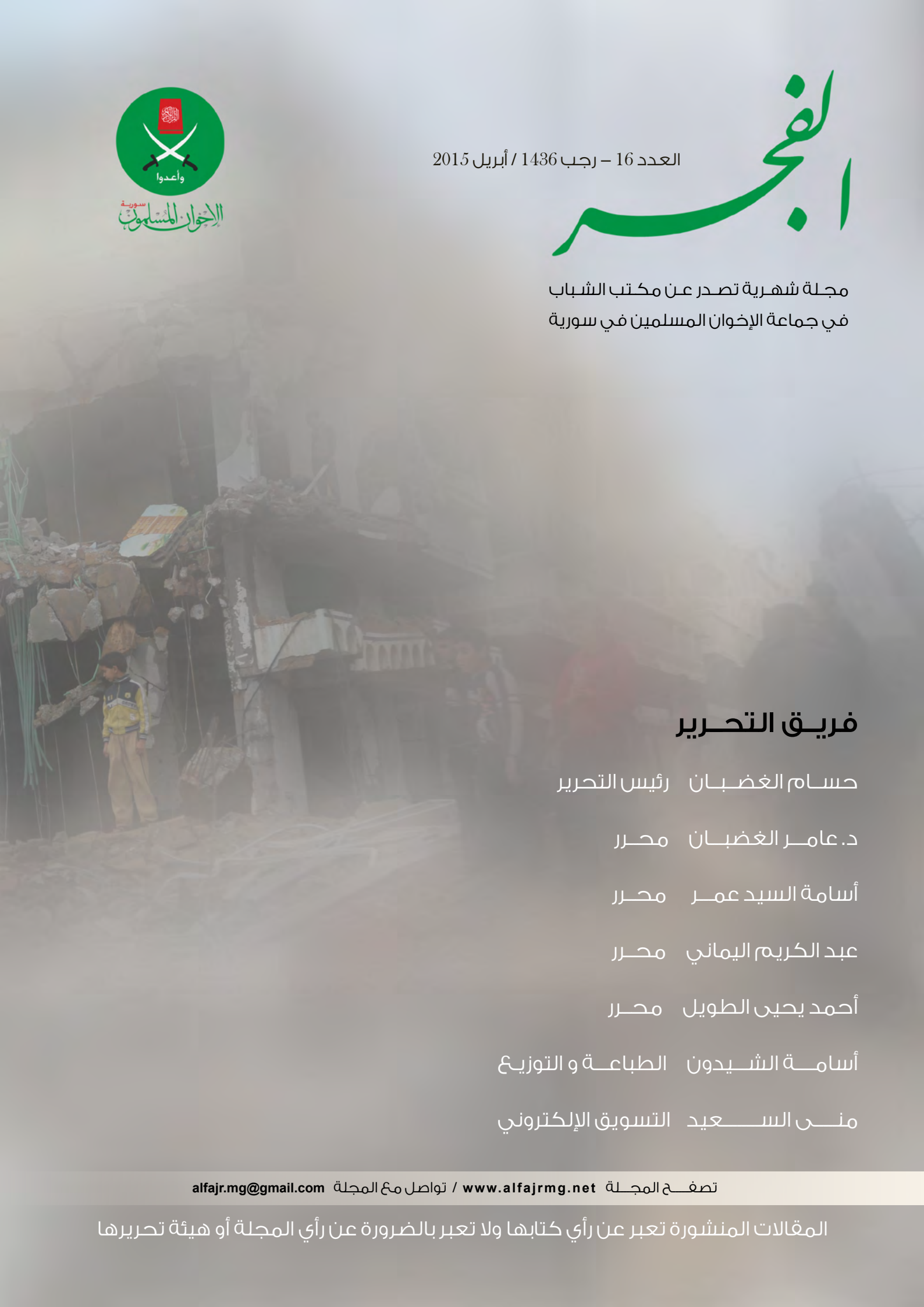

الفجر

العدد 16 – رجب 1436 / أبريل 2015

مجلة شهرية تصدر عن مكتب الشباب

في جماعة الإخوان المسلمين في سورية

فريق التحرير

حسام الغضبان رئيس التحرير

د. عامر الغضبان محرر

أسامة السيد عمر محرر

عبد الكريم اليماني محرر

أحمد يحيى الطويل محرر

أسامة الشيدون الطباعة و التوزيع

منى السعيد التسويق الإلكتروني

تصفح المجلة **www.alfajrmg.net** / تواصل مع المجلة **alfajr.mg@gmail.com**

المقالات المنشورة تعبر عن رأي كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة تحريرها

المحتوى

04 الفجر قادم

فريق التحرير

05 فيسبوك

06 هنالك ابتلي المؤمنون

الفجر خاص

08 مشروعنا السياسي الإسلامي

زهير سالم

12 الخطاب الشرعي المعاصر وتقديم البدائل النافعة

د. عبد الرحمن إبراهيم زيد الكيلاني

14 البراء المحصّن

يمامة الشريف

16 للّه العزة جميعا

د. عامر غضبان

18 الفتاوى

رابطة العلماء السوريين

22 العالم محمد أمين المصري وكتابه تربية القادة

محمد عادل فارس

29 السافرات الجدد

أحمد دعدوش

31 سلوا عنا الزمان (قصيدة)

رأفت عبيد أبو سلمى

الفجر قادم

بعد العام الرابع، الفجر قادم

أكملنا أربعة أعوام من الجهاد والصبر، وبدأنا عاماً جديداً

❖لقد وعد الله الصابرين بالنصر، وتَوعَّدَ الظالمينَ بالخزي والعذاب، وصدق الله ورسولُه، سيكون كذلك، وستتم كلمةُ الله، وسيَتحقَّقُ أمرُ الله.

❖إيماناً بالله، وثقةً بالله، وتسليماً لأمرِ الله، والتجاءً إلى الله، نقول: الفجر قادم... لكن لن نَتوقَّفَ عن السعي، ولن نَقِفَ ساكنين، ننتظرُ أن يصل إلينا نورُ هذا الفجر. نحن سنسعى لالتماس أسباب النصر، وسنجتَهِدُ في تثبيت مُقوِّمات المقاومة، وعزائم الصبر.

❖نعم كانت المسيرة شاقة، وكان الطريق أطول مما كنا نَتصوَّر، وكانت العقبات أكثرَ مما كنا نَتوقَّع، وأكثر أنواعاً مما كنا نَتخيَّل. لكننا نَتحدَّثُ عن إمكانات أمّة، أمَّة تُحارِبُ فئةً من الظالمين، نعلم أن الله مُعذِّبهم، وإن أملى لهم إلى حين.

❖في هذا الموقف، في الذكرى الرابعة للثورة، يغرق الكثيرون في استرجاع مشاهدِ اجتماعِ الشعب، أو في تعداد أرقام التضحيات، أو في وصفِ مكر الماكرين وحقدهم، ويَنهَمِكُ آخرون في تعداد مواقفِ الفشل، أو في الإشارة إلى مواطنِ الخلل، أو في إصدار قوائمِ المُهتَّمين بالتقصير، أو العجز، أو الخيانة..

❖إننا نعلمُ أن مُراجَعة الأحداثِ مطلبٌ لازم لتوجيه المسيرة، وأن نقدَ القياداتِ والمُؤسَّسات والناشطين مهمةٌ أساسية لتصحيح الأداء وترشيد منهجِ البناء. لكننا نحسبُ أنَّ الجهد الذي نحتاجه لنقتَرِبَ من الفجر القادم لا يقوم فقط على تسمية العيوبِ والنواقِص، ولا يحتاجُ فقط إلى محاكمة الأعمال، والعاملين. إنَّنا نحتاجُ مع ذلك إلى الجهد الفكري الذي يُحقِّقُ النقلةَ من التوصيفِ إلى التقويم، ومن التقويمِ إلى بناء النموذج العملي القادر على مواجهةِ التحديات التي عرفنا الآن حقاً حجمها، وقَدَّرنا كم ستُقرِّبنا مواجهتها من تحقيق النصر ورصدِ الفجر.

❖إنَّ الفكرَ الذي يستندُ إلى الإيمان بالله تعالى والثقة بنصره لا بدَّ أن يجعل معالجاته مُتصِّلة بمحورين: المحور الأول هو توثيق صلة الأفراد بالله تعالى، وتوجيهِ المُؤسَّسات لتحقيق رضا الله تعالى، والمحور الثاني هو الاجتهاد في زيادة المعرفة عن سنن الله تعالى في الخلق والتدبير، وتنمية المهارات في التعاملِ مع هذه السنن.

❖هذه الخصوصية في الفكر المستنِدِ إلى الإيمان بالله تعالى، المُتَّسِقِ مع ما قضى الله تعالى في خلقه، ومع ما أمرَ به في شرعه، هي التي نَتميَّزُ بها عن فكر الطغيان، الذي يعجز عن إدراكِ هذه السنن، فيقعُ دعاته في الهلكة، وينالون العذاب، بعد أن ظنوا أنهم قد أعجَزوا الخلق والخالِق.

❖«أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوةً وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق» [غافر: ٢١].

فيسبوك

عبد الله السلامة

كل صراع سياسي، يكون حله سياسيا، بالضرورة.. سواء أكان سلمياً، أم عنيفاً. وأدوت الصراع السياسي، التي تستخدم، لفرض شروط المتصارعين، متعدّدة، منها: السلاح!

إبراهيم الإبراهيم

من المعيب أن ترى بعضنا يتناسى دماء السوريين في الداخل ومعاناتهم بين القتل والسجن والتشريد في سبيل البحث عن حل لمشكلة الجوازات، فتجده يتحدث بها ليل نهار ومع القاصي والداني وكأنها أس المشاكل والأزمات في سورية.

عبد السلام البيطار

الثورة السورية هي بمثابة زلزال هزَّ عرش الأسد وأنصاره وفضحهم، ودمر آمال الشيعة وأطماعهم، وعرى الخونة والعملاء وكشفهم، وستنتصر رغم أنف الغرب وتحايلهم.

عبدالناصر عبدالقادر

لا يجوز اتهام أحد بالخيانة أو السرقة إلا بدليل.. كما أنه لا يجوز السكوت عن الخائن والحرامي إذا وجد الدليل..

M Fateh Alrawi

هل دي ميستورا ممثل أممي؟؟ هل أمم الأرض تقر بذبح شعب بيد جزار؟ هل تسويق المشاريع الأممية سكين أخرى للذبح؟

Basil Haffar

عندما يكون الحديث عن حل من النوع الذي نتناسى فيه دماء الضحايا ونغمض عيوننا عن عذاباتهم ونصمت عن جريمة المذنب بحقهم فبالتأكيد حينها نحن نتحدث عن حل الأسد جزء منه، بل الأسد هو كل الحل.

Ahmad Sawas

في غربتي اكتشفت أن لي وطنا يموت الآلاف لأجله، فعشقته أكثر..

Abdullah Tayar

قصة مؤلمة

قال: سأتوبُ غداً، نامَ ولم يستيقظ؟!

هنالك ابتلي المؤمنون

تحل الذكرى عاما بعد عام، ذكرى الثورة، وذكرى أطفال درعا يكتبون على الجدران «إجاك الدور يا دكتور»، وذكرى أغاني الثورة، وذكرى الشهداء والمفقودين والمسجونين؛ تمرّ هذه الذكرى في كل عام، ولا يبدو لنا في عبارات الناس وتعبيراتهم ومنشوراتهم على الفيسبوك وما يتناقلونه من مقاطع عبر واتساب وغيره، إلا صور الإصرار والتحدي والثبات على الثورة، صور العزيمة الماضية على الدرب رغم عوائق الطريق، ورغم اشتداد الألم، بل رغم اشتداد الجوع وضيق الحصار..

لكن، هل تخفي راية الثبات على الثورة هذه أسئلة نتردد في طرحها، وعبارات ندم نجتهد في كبتها وإخفائها؟ إذا رأينا أطفال درعا بعد دخولنا السنة الخامسة من الثورة، هل سنقبّل أيديهم التي أشعلت هذه الثورة المباركة، أم سنقول لهم: سامحكم الله، ما الذي ورطتمونا فيه؟ إذا اجتمعت سرائرنا في لحظة بوح صادق، فهل ستتلاوم أم ستبتهج على انقلاب حياتها رأسا على عقب من الاستقرار والسكينة مع شيء من الذل في بيئة من الفساد قد تعودت عليها؛ إلى حياة مضطربة مستنفرة جائعة مطاردة، تنعم بجبين عزيز وحياة حرة، قد تخاف البرميل يسقط عليها لكنها -بالتأكيد- لا تخاف الكلمة قوية تقذف بها وجه ملقي البرميل وآمره وسيدهم جميعا؟ ببساطة: هل ندمنا على الثورة؟ قد يبدو مجرد طرح هذا السؤال خيانة عظمى لدماء الشهداء، وخذلانا للأسرى الذين تغص بهم -أو بجثثهم- معتقلات النظام وثلاجاته، وقد قالت بعض هتافات الثورة المصرية المستمرة: «اليأس خيانة». لكن التساؤل في حدّ ذاته لا يكون يأسا إلا إذا طرح في سياق التيئيس والتخذيل. السؤال ليس مقلقا، ربما الإجابة عليه هي التي قد تكون مقلقة! من المفيد طرح هذا التساؤل حتى لو بين نفوسنا، وفي سرائرنا، وجلساتنا المغلقة التي نراجع فيها خطواتنا.

لن يفيد الهروب من السؤال لأن إجابته «سلبية»! بل لا بد من مراجعة الخطوات لتصحيح مسارها، ولا بد من طرح الأسئلة المؤثرة لاكتشاف العوامل المؤثرة. الهروب من المرض لا يشفي منه! ومن لا يعلم أنه مريض فكيف يطلب الدواء؟! مرة أخرى: هل ندمنا على الثورة؟

لا يستطيع المرء أن يهرب من مشاعره، ومهما كان جَلْدا قويا صابرا فإنه قد يصيبه ما يصيب البشر من ضعف، خصوصا إذا كان حوله من «الذين في قلوبهم مرض» -كما وصفهم الله تعالى- مَن يضيّق الدنيا أكثر من ضيقها. وقد ابتلى الله تعالى المسلمين عندما اجتمع عليهم الأحزاب حتى «زلزلوا زلزالا شديدا»، ويصف الله تعالى الضيق الذي بلغوه «إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا».. نعم إنهم «يظنون بالله الظنونا» من شدة الكرب وضيق الأزمة وقلة الحلول وتكالب الأعداء.. نعم لقد «ظنوا بالله»، وما جعل الله تعالى ذلك منهم يأسا أو كفرا أو تراجعا أو نكوصا، بل سماه: ابتلاء، «هنالك ابتلي المؤمنون». وفي خضمّ هذا الابتلاء ظهر المرض: «إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا»!! وبدأت الدعوات للانسحاب والتراجع «يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا»، وبدأت الاستئذانات «إن بيوتنا عورة»!

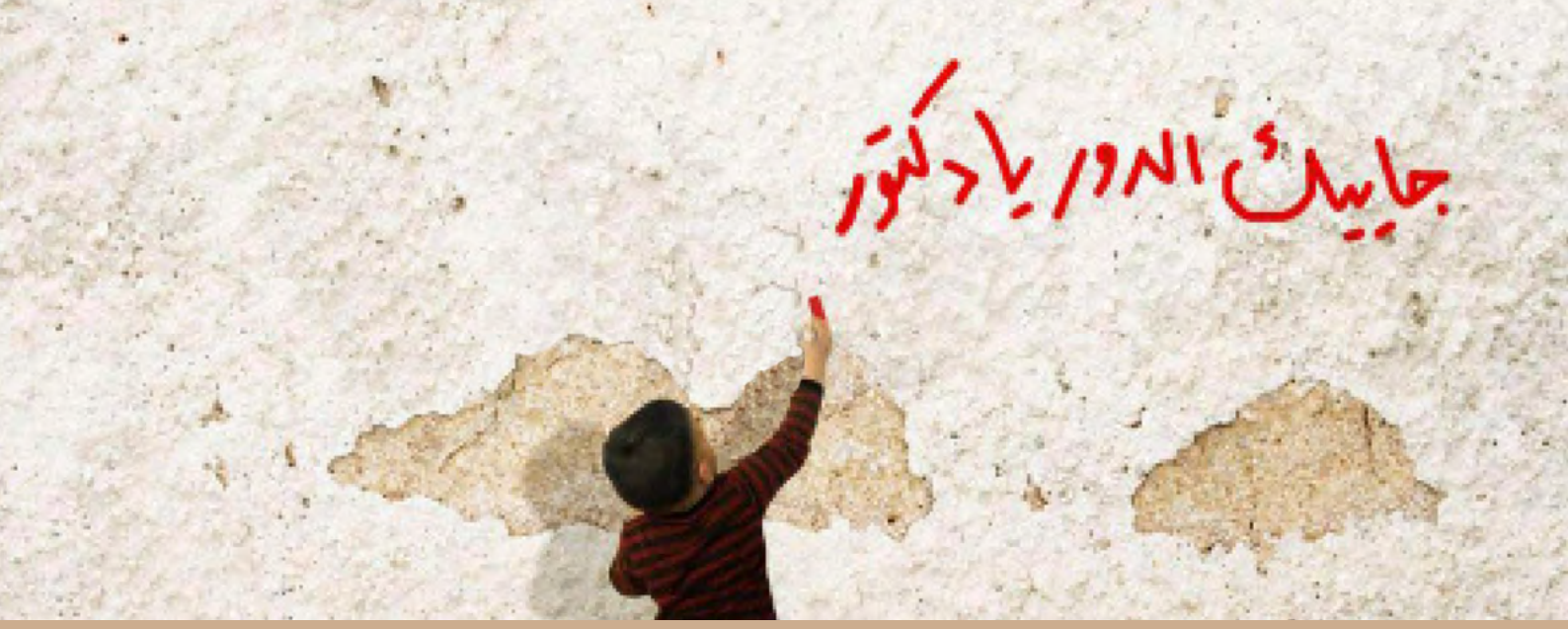

وليست هذه الأعذار استجابة للواقع وتحدياته كما يزعم هؤلاء المخذلون، لكنها الفتنة المستقرة في قلوبهم، الفتنة التي لو سئلوها «لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا». فالمرض مستقر في قلوبهم، ولم يكن الابتلاء إلا «البيئة» التي هيّأت لانكشاف هذا المرض، ومكّنته من الظهور! مرة أخرى: ليست المشكلة في التساؤل، بل المشكلة في الإجابة عليه. فبعدما عرض الله تعالى حالة الابتلاء التي عاشها المسلمون، وكيف كشف هذا الابتلاء أمراض القلوب، جاء الجواب الإلهي للجميع، للمثبطين وللمترددين وللمحتارين وللصابرين، لمن يريد الفرار ولمن يبحث عن حل: «قل لن ينفعكم الفرار -إن فررتم- من الموت أو القتل»، ولاحظ روعة هذه الجملة المعترضة ودلالاتها «إن فررتم»، وهل يفرّ أحد من الموت؟! ثم يعرض سبحانه للحقيقة الثابتة التي يجب أن لا تغيب عند طرح سؤال الندم: «من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة»؟ هل كانت هذه الابتلاءات التي مررنا بها نتيجة لـ«خطأ» الثورة الذي اقترفناه؟ هل كنا سنعصم منها لو لم نثر؟ منذ آذار ٢٠١١ -شهر ثورتنا- وقعت على الأرض كوارث وابتلاءات كثيرة، في الشهر نفسه شرّد مفاعل فوكوشيما في اليابان الآلاف من منازلهم، وهدد مدنا وقرى بكوارث إشعاعية تمتد سنين، وفي عدة بلدان سقطت طائرات مدنية وفني من فيها، واجتاحت الظواهر الطبيعية عدة مناطق، وتفشت أوبئة في بعض الدول حتى أبعدت الحبيب عن حبيبه وهم في منزل واحد! حتى الحرب أكلت كثيرا من الأبرياء في دول كثيرة.. الكوارث والمصائب والابتلاءات في كل مكان!! وهي سنة الحياة الدنيا. ربما لم تجتمع كوارث على شعب واحد كالتي اجتمعت على الشعب السوري، وربما لو جمعنا كوارث العالم كله منذ ٢٠١١ -وربما قبلها- لوجدنا لها مثيلات في سورية، ومن بعضها أضعافا مضاعفة؛ هذا كله صحيح، لكن هل ينفعنا الفرار من الموت «إن فررتم»؟! وليس الأمر «إسقاطا في اليد» واستسلاما للواقع كما قد يُتوهم، بل هو دعوة إلى الصبر والإيفاء بعهد الله، ألم نقل يوما «الموت ولا المذلة»؟! والله تعالى في سياق آيات سورة الأحزاب السابقة يبشر من صدق ما عاهد الله عليه، «منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر»، فيخبر أن ما أصابهم من شدة ومصائب وابتلاء كان «ليجزي الله الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم».. وليس هذا جزاء أخرويا فقط، بل هو رديف النصر الدنيوي: «وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها، وكان الله على كل شيء قديرا».. إن منطق الثورة يجب أن لا يكون منطق المكاسب والمخاسر، بل منطق الحق والباطل، مع الله في وجه الطاغوت.. هذه النظرة إلى الثورة، مع التأمل في آيات سورة الأحزاب السابقة، تجعلنا لا نقلق أن نتساءل: هل يجب أن نندم على الثورة؟ لأن الجواب المطمئن إلى وعد الله، ليس كالجواب الراكن إلى مكاسب الدنيا.. «وكان الله على كل شيء قديرا»

مشروعنا السياسي الإسلامي

حتى لا تختلط الأوراق ويُغتال الغلاة المشروعَ الإسلامي

زهير سالم

أولاً: في المرجعية

يتعرض المشروع الإسلامي، في هذه الأيام، إلى حزمة من المخاطر والتحديات تتعانق فيها عمليات التشويه مع محاولات الإقصاء والعزل والحرف مشفوعة بالكيد والمكر والتهديد.

ولم يجتمع أعداء المشروع الإسلامي يوماً عليه كما يجتمعون اليوم؛ حيث يتآلب الدولي والإقليمي والمحلي، ويأتلف الجميع على حرب (المشروع الإسلامي) المعتدل، ويرون فيه نقيضهم العملي بخلفياته الدينية والمذهبية والفكرية، بمنهجه الوسطي وتجاربه الواعدة، وقواعده البشرية المستنيرة والمبشرة.

وينخرط في حرب هذا المشروع كلُّ من رأى فيه بَعد (الربيع العربي) تهديداً لمصالحَ أَمرَع أصحابُها وهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون، تحت عنوان الاسلام وباسم عقيدته وشريعته، أو باسم الإنسان إرادته وحريته وحقوقه... ولعل أخطرَ ما يتعرض له المشروع الإسلامي اليوم هو استعلانُ أمر فئةٍ من الغلاة تُسيءُ إلى الإسلام ومشروعه باسمه، وتسبقُ إلى تقديمِ أنموذجٍ شائهٍ عنه. أنموذج خِداج يتقدم به أغمارٌ وأخلاط طالما ابتُليَت بهم دعوة الإسلام ومجتمعاته على مرّ التاريخ. ومع تآلب أعداء المشروع الإسلامي عليه، واجتماعهم عليه، واستعانتهم في حربه بما يفعله الغلاة الأدعياء المشوهون (بفتح الواو وكسرها)، لم يعد يكفي حَمَلةَ المشروع العصري في الإعلان عن أنفسهم، وفي التعريف بمشروعهم أن يكتفوا بوصف مشروعهم بأنه (وسطي معتدل) أو بأنه يعتمد رؤيةً عصرية (لإسلام متجدد)، أو أنه يختار (الأيسر والأقرب ما لم يكن إثماً)... بل غدا من الضروري أن يتقدمَ حملةُ المشروع الإسلامي الوسطي خطوات على طريق تقديمه وشرحِ أبعادِه، والوقوفِ عند مفاصله. وعليهم أن يفعلوا ذلك في هذه الجولة من الصراع على محورَين؛ الأولُ يعتمد المزيدَ من البيان والتوضيح من المجمل إلى المفصل ومن العام إلى الخاص، والثاني محور التميّز عما ينهجه الغلاة الضُّلّال الذين يدّعون تمثيل الإسلام الحق، أو أنهم يقدمون أنموذجاً عنه... لقد تمثلت المرجعية الإسلامية كما حددها حملة المشروع الإسلامي من قبل في (المحكم من الكتاب والسنة الصحيحة)، وفي الاختيار مما يناسب العصر من اجتهادات فقهاء الإسلام، ثم في الاستفادة من تجارب وخبرات الأمم والشعوب، ولكن هذا المجمل العام لم يعد يكفي في تقديم هذا المشروع وشرح أبعاده وتمييزه عما ينهج الضالون... دائماً كان النص الشرعي وسيبقى مصدراً أساساً يصدر عنه كل الذين يُمَسِّكون بالكتاب، ويُصِرون على أن يدوروا معه حيث دار، ودائماً كان أهم ما اختلف فيه العلماء والمجتهدون هو (المنهج) في التعامل مع هذا النص القدسي، الذي ظل دائماً موضع الاحترام والتوقير.. إن الأمر الأول الذي يجب أن يكون واضحاً وفارقاً في الوقت نفسه أن رؤيتَنا المستقبليةَ تَنتَصِبُ في أفق إعادة بناء المجتمع المسلم والدولة المسلمة بناء عصرياً جديداً، على الأسس والقواعد الكلية والعامة التي أقرهاالقرآنُ الكريم. وأكّدتها شريعةُ الإسلام في مقاصدها الكلية العامة.

ثم إنه يجب أن يكونَ واضحاً للقريب والبعيد أن جوهرَ مشروعِنا الإسلامي لكل عصر قد احتوته سورة العصر: إيمان.. وعمل صالح.. وتواصٍ بالحق.. وتواصٍ بالصبر. إيمان بأركانه ومبادئه، وعمل صالح بضوابطه، وتواصٍ بالحق في الالتزام وتواصٍ بالصبر في القبض على جَمرِ ردّ كيد الكائدين. ثم لقد أصبح من واجب الوقت أن نُبادرَ، أصحابَ المشروع الإسلامي، إلى إعلان التزامنا المتميز والفارق بعقلِ عُمرَ الفاروقِ وفقهِه بدون تردد ولا تلعثُم، عقل عمر وفقهه ليس في الوقائع الفردية التي سَنَّها عمر، بل في منهج عمر في فقه النصّ والتعامل معه، وفي موقفِه منه.. فبعد بضع سنواتٍ من وفاة الرسول الكريم صلى الله وسلم عليه، بل بعد بضع سنوات فقط من نزول قوله تعالى: (اليومَ أكمَلتُ لكُم دينَكُم وأتممَتُ عليكُم نعمتي ورَضِيتُ لكمُ الإسلامَ ديناً) [المائدة: ٣] وضعَ عمرُ رضي الله عنه الأساس لمدرسةٍ في الفقه لم تَجدْ لها في حياة المسلمين، مع الأسف، بقاءً أو نماءً. ولقد نهجَ عمرُ رضي عنه للمسلمين منهجاً في الفهم والفقه كان وما زال يستحقُّ أن يَجِدَ على مر العصور متابعين وأنصاراً. إن المشروعَ الإسلامي الوسطي اليوم هو الأحوج إلى المنهج العُمري في الفقهِ وبُعدِ الرؤية في الاستنباط. المشروعُ الإسلامي بحاجة إلى الجهر بالمنهجية العُمرية كعلامة مميِّزة وفارقة لمنهجِ أصحاب المشروع الإسلامي وفقههم.. فهل سيرتقي حَمَلة المشروع الإسلامي الوسطي الذين يتقدمون بالإسلام إلى أفق عُمري، في منهجه وليس في وقائعه وجزئياته؟ عُمَر الذي قال عن المؤلفة قلوبهم: إن الله أغنى عنهم بعز الإسلام، فأوقَفَ العمل بسَهمهم الذي نصت عليه آية من كتاب الله، وعُمَر الذي نظر إلى سواد العراق فرآه أكبرَ من أن يكون فَيئاً للجند الفاتحين، فقال: ومَن مِن بَعدُ لذراري المسلمين؟ عُمَر الذي رأى خَصاصةَ الناس وجوعَهم في عام الرَّمادة فوضع عنهم حد السرقة، لأن الخَصاصة التي كان فيها الناسُ تشكِّل ظَرفاً مخفِّفاً للعقوبة، عمر الذي كان يمتلك الرؤيةَ ويمتلك القوةَ لينظرَ بنور الله، وليعملَ على المقصد الأَسمى للفقه الذي استقاه نقياً من سيدنا رسول الله... فهل سترتقي القياداتُ الإسلامية إلى أفق رسم المشروع الإسلامي في مقاصده الغائية العليا، وليس في وقائعة الزمنية المحدودة. ثم في حديثنا عن المرجعية الإسلامية، وحين يعود المسلم إلى خزانة الفقه الإسلامي، هذا التراث العلمي والفكري والقانوني العظيم، سيجد أبواباً فيه نَسَخَ الحديثَ عنها الزمانُ، ومكانُها الحقيقي هو تاريخُ الحضارة وتاريخُ الإنسان وتاريخُ الشرائع، وليس فقه الحياة. والمسائل في ذلك

أكثرُ من أن يُحيطَ بها مقال. ولو أردنا أن نستقصي لأَطَلْنا ولو ضربْنا مثلاً أو مثَّلين لأخلَلْنا. ولكن عند أي استعراض لأبواب وفصول موسوعةٍ فقهية من مثل «المجموع» للنووي أو «المبسوط» للسرخسي أو «الحاشية» لابن عابدين سنجد أبواباً كثيرة تَطرحُ موضوعاتٍ هي للحياة التاريخيَّة أقربُ، وبمواضعاتِها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ألصَقُ. فأين ستقعُ في سياق هذا العصر أبواب من الفقه تعالجُ موضوعاتِ مثل الرقيقِ والإماء والتَّسَرِّي والاستيلاد والعِتق والتدبير والولاء؟ والمَثَلُ فيما لا مجال للتردّد فيه يُغني عما عداه. لقد آن الأوان لحسم القول، وهو محسوم، في هذه الموضوعات، والصَّدعِ فيها بالحق، والتأكيدِ على أنها لم تعد من قضايا الحياة العامة، كما لم أنها ليست من متعلقات مشروعِ الإسلام. ووراءَ ما ذُكِرَ الكثيرُ مما لم يُذكرْ مما لا يحتمل ذكره في مقال..

وبيانٌ أخير لا بد منه في إطار الحديث عن المرجعية، وهو أننا إذا اعتبرنا تراث الإسلام الفقهي ثروةً وغنىً نتخير منه ما يصلح لعصرنا، ويحقق مصالح شعوبنا، فإن من تمام هذا الإعلان أن نؤكد أن كل ما سَبَقَ إلى تسطيره أو تقريره قياداتُ العمل الإسلامي المعاصر، ولا يُستثنى منهم في هذا السياق أحد، هو مجرد اجتهادات شخصية، يُقبل من أصحابها ويُرد عليهم. وإن بعض هذه الاجتهادات كان ابنَ ظَرْفِه ووقتِه وشرطِه، ولا يُلزِمُ أصحابَ المشروع الإسلامي في شيء. فانتماءُ المشروع الدعوي الإسلامي المستنير هو دائما للحق والحكمة، وهو في مراجعات دائمة، يُعيد استقبال ما استدبر ليكون فيه مع الحكمة ومع الصواب. ورائده في كل ما يقررُ ويدبرُ قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

الخطاب الشرعي المعاصر وتقديـــم البدائـــل النافعة

د. عبد الرحمن إبراهيم زيد الكيلاني

إن من الأصول العلمية التي يجب على العلماء والدعاة اليوم أن يؤسسوا عليها خطابهم الشرعي المعاصر: تقديم البدائل النافعة، التي تلبي حاجات الناس وتحقق مصالحهم وتقيم حياتهم الكريمة الطيبة ، إذ لا يكفي أن يُذكر للناس أن هذا الفعل حرام دون أن يُذكر معه الحلال الطيب الذي يغني عن ذاك الحرام الخبيث ويعين على تركه، ويمكّن الناس من البعد عنه واجتنابه، ولا يقبل أن يُحكم على الفعل بأنه منكر ومحظور دون يقدم معه الحل الممكن والفكرة الرائدة والاقتراح النافع المتاح الذي يجعل الناس في سعة وفسحة عن الوقوع في ذاك المنكر والحاجة إليه.

وإن الدارس لكتاب الله تعالى والناظر في أحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يجد أن تشريع الأحكام وبيانها للناس قد ارتبط دائما بتقديم البدائل النافعة في مقابل تحريم الأفعال الضارة (١)، فلا يحرِّم الله تعالى على عباده شيئاً إلا ويكون قد أحل في مقابله ما هو خير للعباد وأنفع لهم في تحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية، وقد نبه الله تعالى إلى هذا المعنى في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الأعراف-١٥٧].

أرشدت هذه الآية الكريمة إلى أن التشريع ليس نهياً عن المنكرات وتحريماً للخبائث فقط، وإنما هو أيضاً أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وهذا دليل على تكامل الشريعة وتوازنها في مراعاتها للجانبين معاً.

وقد كشف ابن القيم -رحمه الله- عن هذا القانون العام والقاعدة المطردة بقوله : «ومن تأمل أسرار الشريعة وتدبر حِكمها رأى ذلك ظاهرا على صفحات أوامرها ونواهيها باديا لمن نظره نافذ، فإذا حرم عليهم شيئا عوضهم عنه بما هو خير لهم وأنفع، وأباح لهم منه ما تدعو حاجتهم إليه ليسهل عليهم تركه»(٢).

ويؤكد على هذا المعنى الاستقراء لموارد الأحكام من الكتاب والسنة، حيث إن المتتبع لهما يجد أن جميع المحرمات من الأفعال قد شرعت في مقابلها الأفعال الجائزة النافعة التي يستغني بها العبد عن الوقوع في الضار الممنوع، ويقدر على تلبية حاجاته ومطالبه الجِبلِّيّة من خلال النافع المشروع، فما حرمه الله مثلا : من الربا و الزنا و الخبائث من الطعام والشراب، فإنه قد أحلّ في مقابله البيع والزواج والطيبات من الطعام والشراب، وذلك نظرا لما في المحرمات من المفاسد والأضرار، وفي المباحات من المنافع والمصالح.

وحرّم الله تعالى نكاح بعض النساء بسبب النسب أو المصاهرة أو الرضاع، قال تعالى : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا. وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» [النساء-٢٣-٢٤]،

وأحلّ في مقابل هؤلاء المحرمات ما عدا ذلك من النساء فقال:(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ) [النساء-٢٤] وحُرِّم على الرجال لباس الحرير والذهب، وأبيح لهم ما لا يحصى من صور التجمل والتزين المختلفة، كما أبيح لهم منه اليسير من الحرير الذي تدعو الحاجة إليه(٣). وهكذا مضت سنة الله تعالى في تكليفه لعباده أنه ما حرّم خبيثاً ولا ضاراً إلا أباح لعباده طيباً بإزائه أنفع لهم منه(٤). وهذه السنة المطّردة هي من لوازم وآثار خاصية السماحة والرحمة التي تتصف بها الشريعة الإسلامية، فالله تعالى إذا حرّم الأفعال الضارة الفاسدة، فإنه يفتح لعباده أبواب الحلال الكثيرة، ما يعينهم على اجتناب الحرام وتفادي أضراره ومفاسده، ويجعلهم بمندوحة عن اللجوء إليه ابتداء، فالمقصود إذاً هو تحقيق مصالح العباد، وليس النكاية بهم أو إعْناتهم. وليس شرطاً في الحلال النافع أن يأتي تشريعه مباشرة عقب المحرم ، وإنما لا بد من وجود الخيارات المشروعة في الجملة إزاء كل فعل محرم، سواء أكان المشروع متقدما على المحرم أو متأخراً عنه في زمان التشريع، فتشريع الحلال النافع عوضاً عن المحرم الضارّ يمكّن العباد من الاستغناء عن الوقوع فيما حرم عليهم، ويعينهم على الالتزام بالتكاليف ما دام قد شرع لهم النافع الذي يلبي مطالبهم الفطرية ويشبع رغائبهم الغريزية ويحقق حاجاتهم الطبيعية. و إن تشريع البدائل النافعة للعباد قد يكون تشريعاً أصلياً ابتدائياً، كالزواج في مقابل الزنا،وكالبيع في مقابل الربا، وقد يكون تشريعاً استثنائياً للحالات الخاصة التي فيها مشقة وحرج من الالتزام بالأحكام الأصلية التي تقتضي تحريم بعض الأفعال،كمشروعية أكل المطعومات المحرمة عند الضرورة استثناء من اصل التحريم، ومشروعية النظر إلى المخطوبة استثناء من أصل الأمر بغض البصر. قال العز بن عبدالسلام: « اعلم أن الله شرع لعباده السعي في تحصيل مصالح عاجلة وآجلة تجمع كل قاعدة منها علة واحدة، ثم استثنى منها ما في ملابسته مشقة شديدة أو مفسدة تُربي على تلك المصالح، وكذلك شرع لهم السعي في درء مفاسد في الدارين أو في أحدهما تجمع كل قاعدة منها علة واحدة، ثم استثنى منها ما في اجتنابه مشقة شديدة أو مصلحة تُربي-أي تزيد - على تلك المفاسد، وكل ذلك رحمة بعباده ونظر لهم ورفق، ويعبِّر عن ذلك كلِّه بما خالف القياس، وذلك جار في العبادات والمعاوضات وسائر التصدقات»(٥).

وقال ابن عاشور(٦): «لقد تأصل مما أفضنا به القول في مبحث سماحة الشريعة ونفي الحرج عنها، ما فيه مقنع من اليقين بأن الشريعة لا تشتمل على نكاية بالأمة. فإن من خصائص شريعة الإسلام أنها شريعة عملية تسعى إلى تحصيل مقاصدها في عموم الأمة وفي خويصة الأفراد، فلذلك كان الأهم في نظرها إمكان تحصيل مقاصدها، ولا يتم ذلك إلا بسلوك طريق التيسير والرفق. وأحسب أن انتفاء النكاية عن التشريع هو من خصائص شريعة الإسلام، ولما دل عليه القرآن من أنه قد أوقع النكاية ببعض الأمم في تشريع لها، قال تعالى :(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا. وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)[النساء- ١٦٠-١٦١]، فدلّ على أن تحريم بعض الطيبات على بني اسرائيل كان عقاباً لهم على ما صدر منهم من التوغل في مخالفة الشريعة. فالإسلام إذا رخّص وسهّل فقد جاء على الظاهر من سماحته،وإذا شدد أو نسخ حكما من إباحة أو تحريم أو نحو ذلك فلرعي مصلحة الأمة والتدرج بها إلى مدارج الإصلاح مع الرفق»(٧). وخلاصة الأمر أن الله تعالى ما حرم على عباده خبيثاً ولا ضاراً إلا أباح لهم طيباً بإزائه أنفع لهم منه، ولا أمرهم بأمر إلا وأعانهم عليه، فوسِعتهم رحمتُه ووسِعهم تكليفُه، وهذا ما يجب على الفقهاء والعلماء والدعاة اليوم أن يترسموه في دعوتهم وبيانهم وخطابهم للناس، بحيث يقدمون البدائل الشرعية، ويبتكرون الحلول العملية، ويقترحون الأدوات المناسبة التي تمكن الناس من ترك المعاملات الضارة والأفعال الفاسدة، وذلك حتى يكون الخطاب الشرعي واقعياً وعملياً يجد فيها الناس ما يلبي حاجاتهم ويحقق غاياتهم ويقيم مصالحهم بكل سعة ويسر.

---

(١) انظر :هذه القاعدة تفصيلاً في موسوعة زايد للقواعد الفقهية والأصولية، قسم القواعد المقاصدية،و إعلام الموقعين لابن القيم ١٦٦/٢.

(٢) انظر : إعلام الموقعين لابن القيم ١٦٦/٢.

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم ١٦٦/٢.

(٤) انظر : إعلام الموقعين لابن القيم ١٦٦/٢.

(٥) قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام ٢٨٣/٢.

(٦) ابن عاشور هو: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور، فقيه أصولي، ولد سنة ١٢٩٦، والتحق بجامع الزيتونة لطلب العلم فنبغ حتى صار شيخاً له سنة ١٣٥١هـ، توفي سنة ١٣٩٤هـ، له: «التحرير والتنوير» في التفسير، و«مقاصد الشريعة الإسلامية» وغيرهما.

(٧) مقاصد الشريعة لابن عاشور ص ٣٣٧.

يمامة الشريف

البراء المحصِّن

ليست عقيدة البراء التي يستعلن بها القرآنُ في غير ما موضعٍ راسماً الحدَّ الفاصل بين المسلمين وسواهم أن (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [الكافرون:٦] بعقيدة عدوانٍ أو انغلاق كما قد يتبادر إلى ذهن المراقب الذي لا يتلبّثُ مليّاً، ذلك أنّ إغلاق النوافذ التي تأتي برياح الإفساد أو غيره ليست إلا تحصيناً للبيت الداخلي وحمايةً له، إذ إنّ لكل بيتٍ باباً وإنّ البرّ أن تؤتى البيوتَ من أبوابها، أمّا ما يأتي من النوافذ والثغرات فهو خارجٌ عن الرقابة التي تحصِّن هذا البيت وتحمي حرمتَه.

ثمة بيتٌ إذن، ثمّة جماعةٌ إنسانيّةٌ متعاضدة يشدُّ بعضها بعضاً، يعصّبُها ولاءٌ لا نظيرَ له، ولاءٌ تلخّصه الآيةُ القرآنيّةُ (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) [الحجرات:١٠] أخوّةٌ أقوى من أخوّة النسب، تنظّمها علاقاتٌ وشيجة تبدأ بالحبّ في الله وتمرّ بأخلاق رفيعة تضمن تماسك الجماعة وتلاحمها (وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) [الحجرات:١٢] ولا تنتهي عند الموت في سبيل حياة الجماعة واستمرارها؛ هذه الجماعة/ الأمة هي شرطٌ أساسيّ من شروط الحضارة، إذ لا تقوم حضارةٌ إلا بأمّة، ولا تكون الأمّةُ أمّةً إلا بالولاء أو «الترابط الذاتي» كما يسمّيه توينبي أو «العصبيّة» كما يرى ابن خلدون ، ويضيف فرويد : «الحضارة، لو علمنا، لم تقم لها قائمةٌ إلا عندما تخلّينا عن رغباتنا في الإشباع الغريزي، وهي ثمرة نبذنا لهذه الغرائز.. وتزيد المؤثرات الحضاريّة من فرص تحول الميول والاتجاهات الأنانيّة في الإنسان إلى ميول واتجاهات غيريّة واجتماعيّة».

ابتنى الإسلامُ حضارتَه بأمّةٍ ذاتِ ولاءٍ عريضٍ بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين الأنصار، المؤاخاة التي غرست في النفوس مفهوم الأمة التي تعيش لأجل عقيدتها، وتعمّقَ بأنّ «ذمّة المسلمين واحدة يجير عليهم أدناهم» فعمّ الإحساس بالوحدة والتساوي، وتبدّى في قول أبي سفيان «ما رأيتُ أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمّدٍ محمّداً».

اقتضى هذا الحبُّ والولاء الكراهيةَ والبراءَ مما هو ضدّه؛ إذ لا بدّ لمن يحبُّ في الله أن يكره في الله، ولا بّد لمن يتولّى المؤمنين أن يكره الكافرين، ولا بدّ لمن ينصر المسلمين أن يحارب المشركين، ويبدو هذا الاقتضاء جليّاً في موقف مصعب بن عميرٍ من أخيه يوم بدر؛ إذ مرّ بأخيه ورجلٌ من الأنصار يأسره، فقال له: شدّ يديك به، فإنّ أمّه ذاتُ متاعٍ لعلّها تفديه..» فقال له أخوه: يا أخي هذه وصاتك بي؟!.. فأجابه: «إنّه أخي دونَك»!!

إنّ إخوّة الدين اقتضت التخلّي عن كلِّ إخوّةٍ دونها، ونصرة الإيمان اقتضت الشدّة على الكفر ولو كان في أولي الرحم كما نصّت الآياتُ في مواضع عديدة، يقول سبحانه: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا،

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [المجادلة: ٢٢] غير أنّ البراءَ، وإن كان من مقتضيات الولاء ومستلزماته، عقيدةٌ ثابتةٌ مفروضةٌ على المؤمنين، بل هو أصلٌ من آكد أصول الدين، وتحقّقُه في نفس المسلم لازمٌ من لوازم إيمانه، ولذلك جاءتُ الآيةُ السابقةُ بالأمر به بأسلوب الخبر لتؤكّد أنّ ذلك حقيقةٌ واقعةٌ للمؤمنين، وأنّ خلافَه لا يُمكن وجودُه؛ إذ لا يجتمعُ الإيمان بالله وحبُّ أعدائه في قلب إنسان، قال الألوسي في تفسير الآية: «والكلام من باب التخييل، خيَّل أنّ من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوادّون المشركين، والغرض منه أنّه لا ينبغي ذلك وحقُّه أن يمتنعَ ولا يوجد بحال، مبالغةً في النهي والزجر عن ملابسته والتصلُّب في مجانبة أعداء الله تعالى..» وغلّظت الآياتُ في التهديد والوعيد لمَن خلا قلبُه من البراء أو تولّى غيرَ المؤمنين؛ فنسبته إلى الظالمين، قال تعالى: «يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين» [المائدة: ٥١] وأخرجته من الملّة، وهو لعمري أعظمُ تغليظٍ في النهي!! إنّها المفاصلة! فمَنْ تولّى الكافرين فليكن منهم، وليخرج من الأمّة المؤمنة، إنّه بتولّيه هذا يخلخل البنيان المتين الذي ينبغي أن يفرضه البراء المطلق من غير المؤمنين، والذي يضمن استمرار قوّة الأمة الداخليّة والخارجيّة، ويحصّنها من الفناء في الآخر أو الذوبان في اللا انتماء، وكان براءُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من عمِّه أبي لهب، أوّل براءٍ من نسيبٍ حسيب، لم يغنه نسبُه ولا حسبُه من الله شيئاً، فتبّت يداه بقرآنٍ يُتلى أبد الدهر، كانت تلك اللحظاتُ الأولى لزرع البراء في نفوس المؤمنين، وغرس الولاء الجديد للأمّة الناشئة.

إنّ المهمّة الحضاريّة التي اضطلع بها «البراء» مهمة جوهرية في حياة الأمم، إذ هو ضابط الحدود وراد الغزاة في عهود الضعف، وهو مظهر العزّة وحافظُ الأصالة في عهود القوّة، وهو ممّا لا بدَّ منه لمَن يحمل هويّةً و يصوغ انتماءً، ثمّ هو ممّا لا بدَّ منه لمَن يؤمن بالحقِّ ويمضي في سبيل الله؛ إذ إنّه محارَبٌ ،لا محالة، كما أخبر ورقةُ بنُ نوفل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّمَ حين أخبره بخبر الوحي، فقال: «يا ليتَني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك» فقال عليه الصلاة والسلام: «أومخرجيَّ هم؟» قال: «نعم، لم يأتِ نبيٌّ بما جئتَ به إلّا أوذي، وإن يدركني يومُكَ أنصرك نصراً مؤزراً «. أجل، لم يكن نبيُّنا بدعاً من الرسل، ولم يأتِ نبيٌّ بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلّم من الحق والعدل إلا حوربَ، وقصصُ الأنبياء معروفةٌ لكلّ مطّلع!

❖ بدأ البراءُ بالهجرةِ من دار الكفر إلى دار الإيمان، وقد كانت هذه الهجرة واجباً لا مندوباً، ثمّ جاءت الشريعةُ بانقطاع التوارث بين المسلم والكافر، فورد في الحديث المتفق عليه: «لا يرث المسلمُ الكافرَ ولا الكافرُ المسلمَ»، كما تمّ قطع التزاوج بين المسلمين وغيرهم، باستثناءٍ ضيّقٍ معروف، هو زواج الرجل المسلم من الكتابيّة، وهو حالةٌ يظلُّ فيها السلطانُ للمسلم؛ إذ سلطان الزواج للرجل دون المرأة، مع الحضِّ على الزواج بذات الدين، والظفر بها!

وإذا كان من أهمِّ أنواع الولاء الحبُّ في الله فإنّ من أهمّ أنواع البراء الكره في الله، وهو كرهٌ متبادلٌ بين أهل الإيمان وأهل الشرك، ويبدو أنّهم هم بدؤونا فيه، قال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» [آل عمران: ١١٨]

❖. وأنواع البراء كذلك كثيرةٌ غير أنّ «الحبّ» فيما نرى أعلاها باطناً و«التشبّه بهم» أعلاها ظاهراً؛ إنّ مخالفتَهم في ظواهرنا وعدمَ التشبّه بهم هو تمييزٌ للمسلمين عن الكافرين، إنّ التشابه الظاهريّ هو انعكاسٌ للتشابه الباطنيّ، ولذلك فإنّ مخالفتهم «منهجٌ ضروريٌّ لتحقيق البراءة والنقاء وتوحيد مصدر التشريع الداخليّ للفرد المسلم.. تجد ذلك في حديث «خالفوا اليهود».. خالفوا المجوس».. ومخالفتُهم لا تقتصر على مخالفة شرورهم، بل مخالفة ما قد يبدو لنا حسنا أحيانا أيضاً إذ «لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا..»، فإذا تجاوزنا «الظلم»، فإن قبول «الحَسَن» لا بد أن يكون أيضًا بوعي وببصيرة بمكانة هذا الحسن وموقعه من القطب الحضاري «الإسلام» وغاياته العظمى ومقاصده الصُلبية ، ذلك أنّ «مَنْ تشبّه بقومٍ فهو منهم» وأنّ الصراط المستقيم يقتضي مخالفة أصحاب الجحيم كما يرى ابن تيمية رحمه الله.

❖. ولنا أن نختم إلمامتَنا المتواضعة بتذكيرٍ لأهل الإسلام والقائمين به والناطقين باسمه في زماننا؛ سيما من تصدّر محافل السياسة، فغفلَ أو تغافلَ عن عقيدة البراء، وراح يُلقي بالمودّة إلى الأعداء تقرُّباً وتزلُّفاً، ويتشبّه بهم محبّةً وأنساً، ويضع قدمه في أرض التنازلات المنحدرة إلى هاويةٍ لا انتماءَ فيها ولا هويّة، مستعيناً في تبرير أقواله وأعماله بفقه الاستضعاف، وجلب المصالح، هي كلمةٌ خالدةٌ لا ريبَ فيها، هي خطاب الله لكلِّ مَنْ سار في هذا الطريق : «وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» [البقرة: ١٢٠].

عامر غضبان

لله العزة جميعاً

يقول الله تعالى: (مَن كان يريدُ العزةَ فللهِ العزةُ جَميعاً إليهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصالحُ يرفَعُهُ والذين يَمكُرون السَّيئاتِ لهم عذابٌ شديدٌ ومَكرُ أولئك هو يَبُور) [فاطر:١٠]

بيان صريح، ونداء واضح: لله العزة جميعاً، وإذا أراد المرء أن يبتغي العزة، فلا يبتغها إلا من الله، ولا يتقرب لأي مخلوق راجياً عنده العزة، وإلا لن ينال العزة، ولا بعضاً منها، لأن العزة لله جميعاً. والاعتزاز بالله تعالى إنما يكون بطاعته وابتغاء مرضاته. وكما نرى أولئك البشر الذين يبتغون العزة عند أمثالهم من البشر، نراهم مبادرين لطاعتهم، باحثين عما يحقق رغباتهم، فإن الاعتزاز بالله تعالى يتطلب من العبد بذل جهده في طاعة الله تعالى والإطالة في السير في طريق مرضاته، ولله المثل الأعلى.

إن طريق الاعتزاز بالله يبدأ بطاعة الله تعالى حين تقابل أمره، وتسمع نداءه، وتعلم أنك مقصود في هذا الموقف بأن تختار بين طاعته ومعصيته، فتختار طاعته في موقف الاختيار.

ثم بعد ذلك، تلتزم طاعة الله تعالى في هذا الأمر وهذا الموقف كلما تكرر، فيصبح اختيارك الأول تطبيقاً دائماً، وعلامة تميز بها طريقك. وبعد ذلك، إذا ذقت حلاوة الإيمان ولذة الطاعة، وعرفت معنى العزة التي تكون من الله تعالى، نتيجة لاتباع أمره، ستجد نفسك محباً للسير أكثر في هذا الطريق، تبتغي التقرب لله تعالى بمزيد من الطاعات، باحثاً عن رضا الله تعالى في كل موقف، أو باحثاً عن كل موقف فيه رضا الله تعالى، حتى تصبح عادة المرء ودأبه أن يؤثر رضا الله تعالى على كل رضا، وأن تشغله محبته عن كل محبة. ويشعر في نفسه ويشعر الآخرون من حوله أنه عزيزٌ بالله سبحانه و تعالى، وأن الله تعالى وليه وناصره.

إنه طريق الاعتزاز بالله تعالى: بطاعة الله تعالى، ثم لزوم أمره، والتقرب إليه، وغايته إيثار الاعتزاز بالله على الاعتزاز بأي مخلوق. ومن أول مظاهر ما يهبه الله لعبده من العزة أن يتكفل له بأمره، ويغنيه عن مخلوقاته، كما وصف ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مُؤْنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وَكَلَه الله إلى الناس» [أخرجه الترمذي]. وكما بيَّن هذا الحديثُ الشريف، فإن من أول مظاهر عزة الله لعبده أن يكفيَه مؤنةَ الناس، أما من حرَمه اللهُ العزةَ فهو يَكِلُ أمره للناس، ويحرمه من رحمته تعالى، وهو أرحم الراحمين. وهذا مما كان يعلمنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ منه، فعن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دعواتُ المكروب: اللهم رحمتَكَ أرجو، فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عَين، وأصلِح لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت» [أخرجه أبو داود].

إنه معنى الاستسلام الكامل لإرادة الله تعالى، والتسليم بقضائه، والثقةِ بأن رحمتَه سبحانه بعباده أوسعُ من رحمتهم بأنفسهم. ومن مظاهر هذا الاستسلام لله الذي تعقبه العزة بالله، أن يتبع المرء ما أمره الله تعالى به، حتى وإن لم يكن ظاهراً لديه أن سيعزّه، ومن أبلغ وأظهر مواقف الإختبار هذه: التواضع لله، والعفو عن عباده. وهما موقفان ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عنهما أنه: «ما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عزّاً، وما تواضعَ أحدٌ للهِ إلا رَفعَه اللهُ» [أخرجه مسلم]. ولنذكر

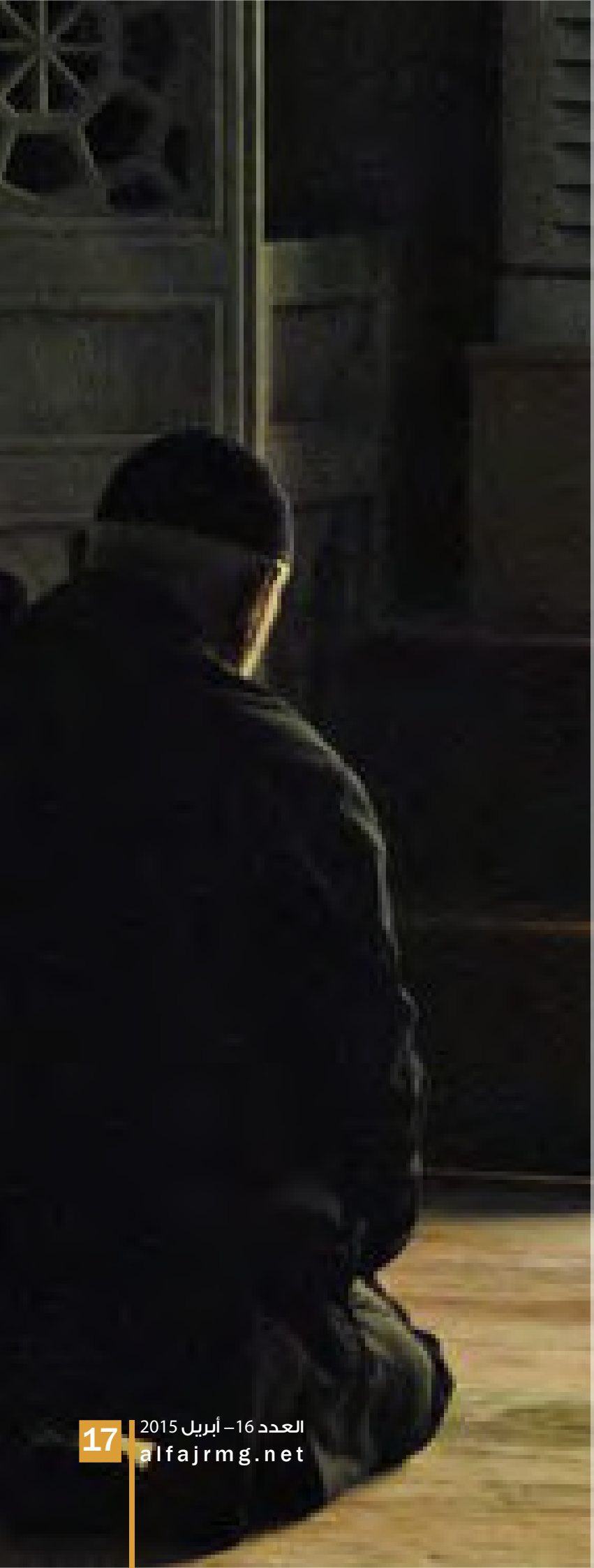

أن التواضع والعفو أمران مخالفان لهوى العُجب والانتقام، وفيهما اختبار لا يقدر على تجاوزه كثير من الناس، لكن من وفّقه الله ومكّنه من اختيار طاعة الله وإيثار مرضاته،كان في منزلة عالية يستحق معها أن ينال العزة بالله تعالى.

❖لقد وصف الله تعالى نفسه في الآية الكريمة بأنه (إليهِ يصعدُ الكَلِمُ الطيِّب والعملُ الصالحُ يرفعُه)، وفي هذا بيان لمن يبتغي العزة من الله تعالى بأن ذلك يكون بالكلم الطيب والعمل الصالح، الذي يصعدُ إلى الله تعالى ويتقبلُه الله تعالى. فمن ابتغى العزة من الله تعالى عليه أن يُصلِح عملَه ظاهراً وباطناً، حتى يكون أرجى لقبوله من العزيز واهبِ العزة سبحانه وتعالى.

أما الذين فسدت أعمالهم فقد وصفهم الله تعالى في الآية أنهم الذين (يمكرون السيئات)، والسياق في الآية الكريمة عن إصلاح العمل الظاهر والباطن، وقد قيل في معنى (الذين يمكرون السيئات) أقوال، من أقواها أنهم المراؤون بأعمالهم، ولعل وجه المكر في أعمالهم أن ظاهرَها الصلاح، وباطنَها الفساد، فهم يبتغون العزة من المخلوقات بأعمال لا تصلُحُ أن تُعمل إلا لله تعالى.

وقد توعد الله تعالى هؤلاء في هذه الآية بأن لهم عذاباً شديداً، وهذا يشبهُ وعيد الله للمصلين المرائين في قوله سبحانه (فويلٌ للمصلِّين، الذين هم عن صلاتِهم ساهُون، الذين هم يُراؤون، ويَمنعون الماعون) [الماعون:٤ - ٧].

وتوعَّدهم الله أيضاً بأن مكرَهم سوف يبور، أي إن ما قدموه من عمل أرادوا ظهور صلاحه بمكرهم سيظهرُ فسادُه، ولا يكسب الإنسانُ منه خيراً. وهذا جزاء من حسب أنه يخادعُ الله تعالى بمكره، واللهُ أسرع مكراً، (فمَن كان يرجو لقاءَ ربه فليَعملْ عملاً صالحاً ولا يُشركْ بعبادة ربه أحدا) [الكهف:١١٠].

الفتاوى

رابطة العلماء السوريين

السؤال:

في بعض المعارك والاقتحامات تقع بعض الأخطاء التي تؤدّي لقتلِ مجاهدين أو مدنيين دون تعمُّد، فماذا يترتّب على هذا القتل؟

الجواب:

العملُ الجهاديُّ كغيره مِن الأعمال البشرية: يعتريه النقصُ، ويقع فيه الخطأُ، وقد ينجم عن ذلك قتلٌ لبعض المجاهدين، أو المدنيين دون قصدٍ، فما وقع مِن ذلك فهو مِن قبيل «القتل الخطأ» الذي لا إثمَ فيه، ولا قِصاصَ، لكن تجب فيه الكفّارةُ والدِّية، وتفصيلُ ذلك كما يلي:

أولاً:

القتلُ الخطأ هو الذي ليس فيه تعمُّدٌ ولا تقصُّدٌ لقتل المجني عليه.

وصورُ القتل الخطأ عديدةٌ، يجمعُها أمران: الخطأُ في الفعل، والخطأُ في القَصد. فمِن الخطأ في الفعل: انفلاتُ الرَّصاص مِن السّلاح أثناءَ تنظيفِه أو صيانتِه وإصابتُه أحدَ المجاهدين، وتفجيرُ العبوات في الوقت غير المناسب بحيثُ

تؤدّي لقتل مَن يكون قريبًا منها مِن المجاهدين، وانحرافُ القذائف وسقوطُها على بعض المدنيين.

ومِن الخطأ في القَصد: أنْ يظنَّ شخصًا مِن الأعداء، فيرميَ عليه الرّصاصَ، ثم يتبيَّنَ أنّه مِن المجاهدين، وكذا مَن صوّب سلاحَه نحو العدوِّ فأخطأ الهدفَ، وأصاب أحدَ المجاهدين، أو المدنيين.

قال ابنُ عبد البَرِّ في «الكافي»: « كلُّ ما وقع مِن فاعله مِن غير قصدٍ ولا إرادةٍ: فهو خطأٌ، ووجوهُ الخطأ كثيرةٌ جدًا ... كالرَّجُلِ يرمي غَرَضًا (هدفًا) فيصيبُ إنسانًا، أو يرمي المشركين بمَنْجَنيق وغيره فيصيبُ مسلمًا».

والقتل الخطأُ لا إثمَ فيه، ولا قِصاصَ على القاتل، ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» [البقرة: ٢٨٦].

وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ تجاوزَ عَنْ أُمَّتي الخطأَ، والنِّسيانَ، وما اسْتُكرهوا عليه» رواه ابن ماجه.

قال ابنُ تيمية في «الفتاوى»: «أَمّا القاتلُ خَطَأً فلا يُؤْخَذُ مِنْهُ قِصاصٌ؛ لا في الدُّنيا، ولا في الآخرةِ».

ثانيًا:
يترتّبُ على القتلِ الخطأ أمران: الكفّارةُ، والدِّيةُ.

قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلا أَنْ يَصَّدَّقُوا... فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) [النساء:٩٢].

فالكفّارةُ واجبةٌ على القاتل، وهي عِتقُ رقبةٍ مؤمنةٍ، فإنْ لم يجد صام شهرين متتابعين، كما في الآية. ولا يقطع صومَ الشهرين إلا لعذرٍ يُجيز الفِطرَ، فإنْ قطعه لغير عذرٍ استأنف مِن جديدٍ.

وعند العجز عن الصّيام فإنّه لا ينتقل إلى الإطعام، بل يبقى الصّيامُ في ذمّةِ القاتل، متى استطاعه وجب عليه عند جمهور الفقهاء، وإن كان عجزُه دائمًا سقط عنه الصّومُ، ولم يلزمه شيءٌ.

وأما الدِّيةُ: فهي واجبةٌ في قتلِ الخطأ على عاقِلة القاتل، وهم عصَبتَه، أي: أقاربُه الذُّكور مِن جهة الأب: الإخوة وبنوهم، والأعمام وبنوهم، وأعمام الأب وبنوهم، وأعمام الجد وبنوهم، سواء كانوا وارثين أو غير وارثين.

قال ابن المنذر في «الإشراف»: «ثبتت الأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنّه قضى بدية الخطأ على العاقلة، وأجمع أهلُ العلم على القول به».

ويُقسِّم القاضي الدِّيةَ على العاقلة حسب القرابةِ والغنى، فيتحمّل الأقربُ والأغنى أكثرَ مِن غيرهما.

قال ابنُ قدامة في «المغني»: «والمعنى في ذلك: أنّ جنايات الخطأ تكثر، ودِيةُ الآدميِّ كثيرةٌ، فإيجابها على الجاني في مالِه يُجحف به، فاقتضت الحكمةُ إيجابَها على العاقلةِ، على سبيل المواساةِ للقاتل، والإعانةِ له، تخفيفًا عنه؛ إذ كان معذوراً في فعلِه، وينفرد هو بالكفّارة».

ومقدارُ دية الخطأ: مئةٌ مِن الإبل، تؤدّى إلى ورثة المقتول، تُدفع مؤجلةً في ثلاثِ سنينَ، قال التّرمذيُّ في «سننه»: «وقد أجمع أهلُ العلم على أنَّ الدّيةَ تؤخذ في ثلاثِ سنينَ، في كلِّ سنةٍ ثلثُ الدّيةِ».

وقال ابنُ قدامة في «المغني»: «ولا خلافَ بينهم في أنّها مؤجّلةٌ في ثلاثِ سنين؛ فإنّ عمرَ وعليًّا رضي الله عنهما جعلا ديةَ الخطأ على العاقلةِ في ثلاث سنين، ولا نعرف لهم مِن الصّحابة مخالفًا، فاتّبعهم على ذلك أهلُ العلم».

ويُنظر فتوى: ما الحكمُ فيما لو قتَل المجاهدُ أخاه خطأً؟

وإذا اشترك في القتلِ الخطأ جماعةٌ: فيشتركون في دفعِ الدّية، بحيث تُقسم عليهم جميعًا، وأمّا الكفّارةُ فتجب كاملةً على كلِّ واحدٍ منهم، فيصوم شهرين متتابعين.

قال ابنُ قدامة في «المغني»: «ومَن شارك في قتلٍ يوجب الكفّارةَ لزمتْه كفارةٌ، ويلزم كلَّ واحدٍ مِن شركائه كفارةٌ، هذا قولُ أكثر أهل العلم».

ثالثًا: تقوم الكتيبةُ والفصائلُ الجهادية مَقام العاقلة في تحمُّل الدّية

وذلك لأنّ المعنى الذي مِن أجله جُعلت الدّيةُ على العاقلة هو «التّناصر» الموجود بين أفراد القبيلة أو العائلة الواحدة، وهذا المعنى متحقّقٌ في هذه الفصائل والكتائب.

فكلُّ جماعةٍ يربط بينهم تنظيمٌ واحدٌ بحيثُ يكونون ممّن ينصرُ بعضُهم بعضًا، فلهم حكمُ العاقلة، وهذا يشمل أهلَ الحرفةِ الواحدة، وأهلَ التنظيم والحزب الواحد. وقد نصَّ بعضُ الفقهاء على أنّ أهلِ الدِّيوان -وهم الجيشُ، أو العسكر الذين كُتبت أسماؤهم في الدِّيوان- يتحمّل بعضُهم ديةَ بعضٍ. قال القرافي في « الذّخيرة»: « ونكتةُ المسألةِ أنَّ التّعاقلَ مبنيٌّ على التّناصرِ، ولذلك اختصّ العاقلة العصبةَ [الأقارب من جهة الأب]، وسقطت عن النّساء والصّبيان والمجانين بعدم النُّصرةِ مع وجود القرابةِ فيهم، فقد دار العَقلُ [أي الدّية] مع النُّصرةِ وجوداً وعدمًا». وقال السّرخسيُّ في «المبسوط»: «ولهذا التّناصرِ أسبابٌ، منها ما يكون بين أهلِ الدّيوانِ باجتماعهم في الدّيوان، ومنها ما يكون بين العشائرِ، وأهل المَحالّ، وأهلِ الحِرَفِ». قال ابنُ تيمية في «الفتاوى»: « فلمّا وضع عمرُ الدّيوانَ كان معلوماً أنَّ جُندَ كلِّ مدينةٍ ينصر بعضُه بعضاً، ويُعين بعضُه بعضاً، وإنْ لم يكونوا أقاربَ، فكانوا هم العاقلةَ، وهذا أصحُّ القولين». وجاء في قرار «مجمع الفقه الإسلامي الدولي» في دورته السادسة عشرة المنعقدة بدبي سنة ١٤٢٦هـ، الموافق ٢٠٠٥م: «العاقلةُ هي الجهةُ التي تتحمّلُ دفعَ الدّيةِ عن الجاني في غير القتلِ العَمدِ دون أنْ يكون لها حقُّ الرّجوعِ على الجاني بما أدّته، وهي العصبةُ في أصل تشريعِها، وأهلُ ديوانه الذين بينهم النُّصرة والتّضامن».

رابعًا:

إذا قَتل المجاهدون رجلاً في صفِّ قتال الأعداء المحاربين، ثم تبيَّن أنه مِن المجاهدين أو المدنيين، ففي وجوب الدّية والكفّارة خلافٌ بين العلماء.

والأقربُ في هذه المسألة التّفصيلُ:

١- إنْ كان معذورًا في وجودِه في صفِّ الأعداء كونه أسيرًا مثلاً، أو دخل إلى صفِّهم لبعض التّرتيبات العسكرية، ففي هذه الحال يتوجّبُ دفعُ الدّيةِ إلى أهلِه، وتجبُ الكفّارةُ على القاتل.

٢- وأمّا إنْ كان غيرَ معذورٍ في وجودِه بينهم: فلا ضمانَ له، وتسقطُ الدّيةُ والكفّارةُ؛ لأنه هو الذي أهدر نفسَه، وعرّضها للتّلفِ حيثُ صار في صفّ الأعداء. قال ابنُ تيمية : «فأمّا الّذي يَقِفُ في صَفِّ قِتالِهم باختيارِه: فلا يُضمَنُ بحالٍ» نقله عنه المرداوي في الإنصاف. وإذا تترّس [تَستّر واحتمى] الأعداءُ بالمسلمين، أو اضطُرَّ المجاهدون لاستهداف الأعداءِ، فوقع بعضُ المسلمين قتلى بفعل المجاهدين، ففي وجوب الدّيةِ والكفارةِ خلافٌ بين العلماء، والأحوطُ : أداءُ الكتيبةِ الدّيةَ إلى أهلِه إنْ كانت قادرةً على ذلك، أو إعانتُهم بما فيه تعويضٌ لهم، مع صومِ القاتلِ شهرين متتابعين إنْ كان معروفًا، فإنْ لم يكن معروفًا: فلا كفارةَ على أحدٍ. وهذا التفصيل في حق القاتل الذي يراعي الضوابط الشرعية في جهاده، أما من كان مفرطًا بها فتجب عليه الكفارة والدية لتفريطه، وربما أثم كذلك.

خامسًا:

إذا حصل قتلٌ خطأ لأحدِ المجاهدين خلالَ المعركة، ولم يُعلَم قاتلُه على وجه التَّعيين

فتكون ديتُه مِن بيت مال المسلمين، وتقوم الكتيبةُ في هذه الحال مَقامَ بيت المال، ولا تجب فيه الكفّارةُ؛ لجهالة القاتل. فعن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال: اختلفت سيوفُ المسلمين على اليمانِ أبي حذيفةَ يومَ أحدٍ، ولا يعرفونه: فقتلوه، فأراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنْ يَدِيَه (يدفع ديته)، فتصدّق حذيفةُ بديتِه على المسلمين. رواه أحمد. ولأنَّ الأصلَ في دم المسلم ألا يذهب هدرًا. وكذلك لو حصل نزاعٌ بين كتيبتين أو قبيلتين أو طائفتين، ونتج عنه قتلُ رجلٍ لا يُعرف مَن قتله: فيجب على الطائفة الثانية المنازعة لطائفته دفعُ الدّيةِ لأهله، وإن كان القتيلُ مِن غير الفريقين المتنازعين: فيتحمل كلا الطرفين ديتَه. قال الإمام مالك في «الموطأ» في جماعةٍ مِن النّاس، اقتتلوا فانكَشفوا، وبينهم قتيلٌ أو جَريحٌ، لا يُدرى مَن فعل ذلك به: « إنَّ أحسنَ ما سُمع في ذلك، أنَّ عليه العَقلَ، وأنَّ عقلَه على القوم الذين نازعوه، وإنْ كان الجريحُ أو القتيلُ مِن غير الفريقين: فعَقلُه على الفريقين جميعًا «.

سادسًا:

إذا كان القتلُ الخطأ نتيجةَ فعلٍ لا يمكن للقاتلِ التحرُّز منه، وكان المقتولُ متسبّبًا فيما حصل له، ولا وجودَ للتّفريط أو التّقصير مِن القاتل:

فلا ضمانَ ولا كفّارة.

ومِن ذلك: أنْ يعترض المقتولُ خطَّ النّارِ بشكلٍ مفاجئٍ لا يُمكنُ معه للرّامي أنْ يحترزَ عنه، أو أنْ يَهجُمَ عليه فجأةً، ولا طريقةَ لدَفعِه دونَ القتلِ، فيقتلَه دفاعًا عن نفسِه، ففي هذه الحال لا ضمانَ على القاتل؛ لأنّ المقتولَ هو مَن فرَّط في نفسِه، وعرّضها للخطر. والقاعدةُ الفقهيةُ: «أنّ «ما لا يمكن التّحرزُ منه: لا ضمانَ فيه». ومما قرّره مجمع الفقه الإسلامي في مؤتمره الثامن المنعقد في (بروناي دار السلام) سنة ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٣م ما يلي: «الحوادثُ التي تنتج عن تسيير المركبات تُطبّق عليها أحكامُ الجنايات المقرّرة في الشريعة الإسلامية،.....ولا يُعفى مِن المسؤولية إلا في الحالات التالية:

١- إذا كان الحادثُ نتيجةً لقوّةٍ قاهرةٍ لا يستطيع دفعَها، وتعذَّر عليه الاحترازُ منها، وهي كلُّ أمرٍ عارضٍ خارجٍ عن تدخّل الإنسان.

٢- إذا كان بسبب فعلِ المتضرّرِ المؤثّرِ تأثيراً قوياً في إحداث النّتيجة.

٣- إذا كان الحادثُ بسبب خطأِ الغير أو تعدّيه، فيتحملُ الغيرُ المسؤوليةَ».

سابعًا:

إذا كان القتلُ ناتجًا عن تصرّفٍ خاطئٍ مِن المجاهد أدّى إلى قتلِ نفسِه

فهو شهيدٌ، وله أجرُ الشُّهداء إنْ شاء الله، لكنْ ليس لأهلِه ديةٌ، لا مِن بيت مالِ المسلمين، ولا مِن غيره. ففي الصّحيحين: أنّ عامر بن الأكوع رضي الله عنه في غزوة خيبرَ أراد قتلَ يهوديٍّ، فارتدَّ السيفُ إليه، فقتلَ نفسَه، فقال بعضُ النّاس: حبط عملُه ؛ لأنه قتل نفسَه. فقال النّبي صلى الله عليه وسلم: «كَذَبَ مَنْ قَالَهُ، إِنَّ لَهُ لَأَجْرَيْنِ -وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ- إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ» رواه البخاري.

وقد بوّب عليه البخاريُّ في «صحيحِه»: «بابٌ إذا قتل نفسَه خطأً فلا ديةَ له».

وقال ابنُ الملقّن في «التّوضيح»: «لم يوجب الشارعُ لعامرٍ ديةً على عاقلةٍ ولا غيرِها، ولو وجب عليها شيءٌ لبيّنه؛ لأنه مكانٌ يُحتاج فيه إلى البيان، بل شهد له بأنّ له أجرين، والنظرُ ممتنعٌ أنْ يجب للمرء على نفسِه شيءٌ؛ بدليل الأطرافِ، وكذا النفس».

ولكن هذا لا يمنعُ أنْ تقوم الكتيبةُ التي ينتسب لها هذا المجاهدُ بمساعدة عائلته؛ تخفيفًا عنهم، وجبرًا لمصابهم، وعملاً بما قرّرته الشريعة مِن التّكفُّل بذوي المجاهدين والشّهداء حتى لا يُتركوا يتكفَّفون الناس، ويكون ذلك صيانةً لهم، وإعانةً على مواصلة طريق الجهاد.

نسأل الله -تعالى- أن يلهم المجاهدين الحكمة وحسن الرأي، وأن يرحم الشهداء. والحمد لله رب العالمين.

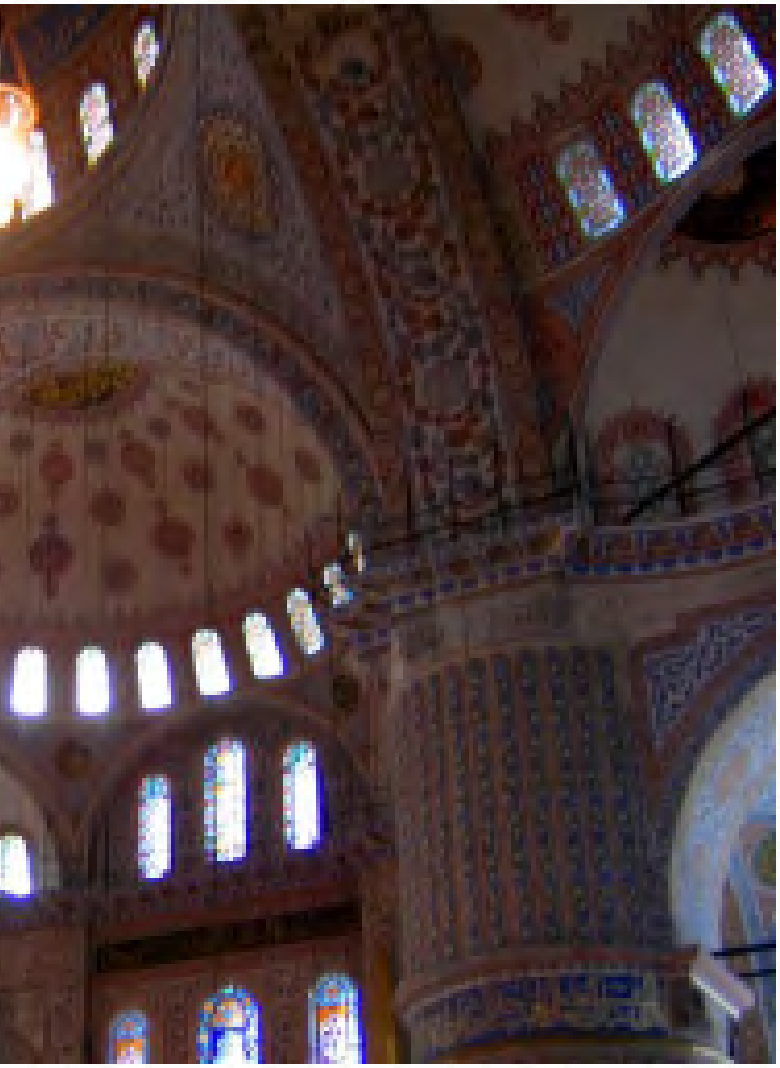

العالم الداعية الدكتور

محمد أمين المصري

وكتابه «تربية القادة»

محمد عادل فارس

أما الكاتب فهو الدكتور المرحوم محمد أمين المصري، العالم الداعية المربّي المحدّث، خرّيج جامعة كامبردج.

وأما الكتاب فهو «تربية القادة». الذي يرسم ملامح التربية التي تخرّج القادة، لا الأتباع ولا العبيد.

لنبدأ بتعريف الكاتب: الدكتور محمد أمين المصري (١٣٣٣-١٣٩٧) هـ = (١٩١٤-١٩٧٧) م.

إنه عالم، محدث، مربٍّ، عرفته جامعة دمشق ومساجد دمشق، لا سيما مسجد المرابط، بدروسه المتميزة التي تجمع بين العلم والعاطفة الصادقة القوية. نشأ في دمشق وقرأ على علمائها من أمثال الشيخ بدر الدين الحسني والشيخ أبي الخير الميداني، ثم رحل إلى مصر لطلب العلم في الأزهر، وحصل على شهادة العالمية عام ١٩٤١. رجع إلى سورية مدرساً في ثانوياتها وداعياً إلى الله في مساجدها، وفي عام ١٩٥١ عين ملحقاً ثقافياً في السفارة السورية في باكستان، وهناك استغل فرصة وجوده فنشط في نشر اللغة العربية وألف كتاباً في ذلك. وعقد الصلات القوية مع الشيخ أبي الأعلى المودودي رحمه الله.

سافر عام ١٩٥٦ إلى بريطانيا للتحضير لرسالة الدكتوراه، وكان موضوعها (معايير النقد عند المحدثين) ورجع إلى سورية عام ١٩٥٩ مدرساً في كلية الشريعة، ولكنه لم يكتف بالتدريس الأكاديمي كما يفعل الكثير من أمثاله، بل كانت له جلسات علمية، وخاصة في التفسير، وله جولات على القرى يحدّث الناس عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يكن الشيخ خطيباً مفوهاً ولكنه كان محدثاً بارعاً قلَّ نظيره.

في عام ١٩٦٥ كان للشيخ تجربة مؤلمة مع بعض الدعاة في دمشق، كما كان له تجربة في مسجد المرابط مع من يشاركه في الدروس، وقد رأى بُعد أحدهم عن منهج أهل السنة، ورأى سكوت الناس وخاصة أهل المال عن الانحراف الواقع، لهذه الأسباب قرر مغادرة سورية وتعاقد مع السعودية مدرساً في جامعة أم القرى. وهناك شارك في تأسيس قسم الدراسات العليا. وكان له طلابه ومحبّوه، وكانت له أحاديث في الإذاعة والتلفاز، ثم انتقل إلى الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية رئيساً لقسم الدراسات العليا، ولم ينفك عن دروسه ومحاضراته في التفسير والسيرة النبوية. وفي عام ١٩٧٧ دعي إلى مؤتمر إسلامي في ألمانيا، سافر بعدها إلى سويسرا لإجراء عملية جراحية، توفي على أثرها ونقل جثمانه إلى مكة ودفن فيها رحمه الله رحمة واسعة.

كان الموضوع الرئيس الذي شغل بال الشيخ هو التربية، والتربية الجهادية خاصة، ولذلك كان يكثر من الحديث عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وسيرة أصحابه، وكان يقول: إن الطفل في الأسرة المسلمة يجب أن ينام على أحاديث الجهاد، وكان ينتقد طرق التعليم في المدارس الحكومية التي تبلّد الطالب ولا تجعله ينطلق علمياً وتربوياً.

كان للشيخ بحوث مهمة في التربية جمعت في كتاب: المسؤولية، وكتاب المجتمع الإسلامي، وجمعت محاضراته في تفسير سورة الأنفال بعنوان: من هدي سورة الأنفال، وله من الكتب: «لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها»، وهو أعظم كتبه، وهو كتاب يصلح أن يكون دليلاً للمربين، و«تعلم العربية لغير الناطقين بها»، وله محاضرات ودروس في سورة آل عمران لم تطبع بعد.

ركائز أفكار الشيخ رحمه الله تعالى

❖ أولاً: موضوع التربية والتركيز علي تربية

المنزل وتربية الأم بالذات، ويستشهد بصحابيات قدمن أولادهن للمعارك الإسلامية، ويقارن بين هذه التربية وتربية الأمهات في هذا العصر، والتي من أقصى أمانيها أن يتخرج ابنها موظفاً أو طبيباً، وتصور له الحياة بأنها العيش الرغيد، ولا يخطر على بالها أن تربي ابنها على الجهاد.

كما كان يتحدث كثيراً عن تربية المَدرسة وينتقد طرق التربية التقليدية التي لا تزال في مدارسنا وجامعاتنا، كنظام الامتحانات الذي يجعل الهدف من التعليم هو النجاح والشهادة بدل أن يجعل الهدف هو حب العلم.

ثم ينتقل الشيخ إلي تربية الشباب سواء في المدرسة أو المسجد أو المجتمع، ويؤكد هنا على ضرورة تربيتهم تربية القادة لا تربية العبيد.

❖ ثانياً: الجهاد:

الجهاد الذي تركه المسلمون، وحوّره وبدّله المتعالمون المنهزمون، أمام ضغط الواقع وضغط الاستشراق الخبيث.

ولذلك كان الذين لا يعرفون الشيخ رحمه الله يظنون أنه لا يتقن غير تفسير سورة الأنفال، وإنما كان يكررها لتأكيد هذا المعنى، كما كان رحمه الله يكثر من تفسير سور: آل عمران والتوبة والأحزاب لتضمنها صور المعارك الكبرى في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وللشيخ أبحاث قيمة في مثل هذا الموضوع مثل بحثه حول الحديث الضعيف أو الذي لا أصل له «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وكيف أثر هذا الحديث وأمثاله على نفوس المسلمين.

❖ ثالثاً: الأخطار الداخلية:

هناك أمراض أصيب بها المسلمون، أمراض نفسية وعقلية تنخر في كيانهم وتسبب لهم ضعفاً، هذه الأمراض هي الخطر الداخلي.

إن أكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه وأن يلقي التبعة دائماً على غيره، ويعلق أخطاءه على مشجب الآخرين، وهذا يريحه من تأنيب الضمير وعَتب العاتبين، فمن أكبر المصائب أن نُسوّغ أخطاءنا ولا نعترف بعجزنا، ونلجأ إلى خداع النفس لكي تتهرب من الواقع.

ومن المصائب أننا لا نبحث أمورنا بشكل جدي بل نبحثها على مستوى السمر والتسلية وهو مرض «استسهال الأمور».

يقول الشيخ رحمه الله تعالى في أحد بحوثه:

«اليأس القتّال والخوَر المميت والثقة المفقودة كل هذه هي العدو الحقيقي والعقبة الكبرى التي تواجه المسلمين، أما العدو الخارجي فأمره يهون إذا استطعنا أن نغير ما بأنفسنا».

هذا الموضوع كان يستأثر باهتمام الشيخ، لأنه يعدّ الأخطار الداخلية هي السبب الرئيسي لما حصل للمسلمين على مر العصور من تخلف.

❖ رابعاً:

كما كان الشيخ رحمه الله تعالى ينعى كثيراً على المسلمين الفهم غير الصحيح لبعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وآيات القرآن الكريم، بحيث إنهم يجعلون من هذه الأحاديث تكأة لعجزهم وضعفهم فيوردون أحاديث الفتن، وأن الأمر ليس له مرد، وأن كل زمان أسوأ من الذي قبله ولذلك فلا داعي للعمل والتبليغ، هذا فضلاً عن احتجاجهم بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي توهن العزائم وتبرر القعود.

❖ خامساً:

لابد من «قلة تنقذ الموقف»، قلة هي النخبة التي تستطيع حمل الأمانة. هذه النخبة يصفها في أكثر بحوثه، يقول في رسالة «المعاني الدخيلة على التربية الإسلامية»: ((فالأمة التي يفقد أبناؤها حمل الرسالة تفقد معاني الجهاد وتفقد قيمة الحياة)).

[مصدر الترجمة: رابطة أدباء الشام، وملتقى أهل الحديث، بتصرّف].

كتاب «تربية القادة»

للدكتور محمد أمين المصري

وأما الكتاب فهو «تربية القادة» وهو يترجم ثقافة الكاتب التي تجمع بين التعمّق في علوم الشريعة، والاعتزاز بالانتماء إلى الإسلام، وبين الاختصاص في العلوم التربوية، هذا الاختصاص الذي يمكّنه من معرفة الدوافع النفسية وأصول بناء الشخصية. وسننقل فيما يأتي فقرات من هذا الكتاب، بشيء من التصرف والاختصار لنتعرف إلى المنهج الذي يراه الكاتب في تربية القادة.

كانت أكثر البلاد الإسلامية ترزح تحت نير الاستعمار الصليبي، وكان السيد محب الدين الخطيب يجاهد بقلمه، وكان يصدر في مصر مجلة «الفتح»، وكان من عادته أن يتوج الصفحة الأولى من مجلته بحكمة مأثورة أو حديث شريف ليوقظ العيون النائمة، وكان من ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنت على ثغرة من ثغر الإسلام؛ فلا يُؤتَيَنّ الإسلام من قِبَلك». أو كما قال عليه السلام، ومن ذلك الجملة التالية:

المسلمون إلى خير ولكن الضعف في القيادة...

لقد فوجئت بهذه الكلمة ورأيت أنها بلغت أعماق نفسي...

إن لدى المسلمين في مجموعاتهم العديدة طاقات هائلة لا تجد من يحسن توجيهها إلى السبيل المؤدية... وكنت طالباً في كلية أصول الدين في الجامع الأزهر، وكنت ألاحظ أن هذه الجامعة والجامعات الإسلامية الأخرى ليس في منهجها أن تخرج للمسلمين قادة ولكنها تخرج أناساً عاديين لا يغنون في الشدائد غناء كبيراً... أين أولئك الذين يتقفّون خطا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؟!.

القيادة ليست إلا شطر القضية:

كنت أحسب أن وجود القائد هو القضية كلها، ولقد دفعني ذلك إلى تتبع الموضوع فقرأت ما يذكر عن معاهد تنشأ لتخريج القادة، ومعاهد أخرى لعباقرة العلم الذين يرجى منهم أن يقودوا الحركة العلمية في مستقبل أيامهم...

وبعد تتبع الموضوع تبين أن القيادة ليست إلا شطر القضية، وشطرها الآخر الأمة بمجموع أفرادها، ولا بد من شروط تتحقق لتتم استجابة الأفراد للقيادة: شروط في القيادة، وشروط في الأفراد أنفسهم. وكل ذلك يؤدي إلى تفاعل متبادل بين الجانبين وانسجام بينهما. في سبيل آخر في التعبير: هنالك إلى جانب القيادة الأولى قيادات أخرى عديدة كقيادة المعلم في غرفة درسه والمدير في مدرسته والأم في منزلها والرئيس في مصنعه ودائرته وعالم القرية في قريته، وكل هذه القيادات لها أثر كبير في نجاح القيادة الأولى وحسن سيرها. لقد دعا نوح عليه الصلاة والسلام قومه أحقاباً من الدهر وما آمن معه إلا قليل، أما محمد صلوات الله عليه وسلامه فكان إلى جانب قيادته أفذاذ من الرجال لا مثيل لهم في التاريخ.

المسلمون وُضِعوا موضع القيادة:

إن المسلمين وضعوا موضع القيادة للعالم كله، وطلاب الجامعات الإسلامية أجدر الناس بمعرفة مكانتهم والحرص على استيفاء شروطها، قال تباركت أسماؤه: (كنتم خير أمة أخرجت للناس). وهذه الميزة تستلزم

السمو والتفوق، وكل ذلك يؤدي إلى وراثة الأرض والخلافة فيها وقيادة الناس وتصريف شؤونهم. قال تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليَسْتَخلِفَنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليُمَكنّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون).

المسلمون يحملون أشرف رسالة:

إن المسلمين خير أمة أخرجت للناس ولذلك كانت لهم قيادة العالم بأسره، وهم خير أمة؛ لأنهم يحملون خير رسالة وأكرمها إلى الناس جميعاً، ولقد فهم ربعي بن عامر هذه الرسالة أوضح فهم حين وقف أمام رستم قائد الفرس يدعو إلى الإسلام قبل مناجزة القتال، لقد قال رستم لربعي: إنما أخرجكم من دياركم الجوع!. فقال ربعي: كان ذلك من قبل، ولكنّا الآن بعد أن بُعث فينا محمد صلى الله عليه وسلم جئنا لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام... إنها كلمة تحمل في ثناياها سنن الرشد كلها وأسس الخير جميعها:

إن مهمة المسلمين إنقاذ الناس من الشرك بأنواعه، وفي ذلك تعود للإنسان إنسانيته وكرامته، فإذا ترك المرء القوانين التي يضعها الطغاة ليستمسك بشرعة الله كانت النتيجة أمرين:

أولهما: الخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها.

وثانيهما: الخروج من أنواع الظلم التي يضعها الإنسان ليستعبد أخاه الإنسان إلى العدل الذي شرعه الله لعباده.

ويقول الباحثون النفسيون إن الفرد الذي يحمل رسالة كريمة هو الفرد المتكامل في شخصيته، والذي لا يحمل رسالة كالقصبة الجوفاء: قلبه خاوٍ، وهو لا يعرف معنى الحياة!. إنه يشبه العجماوات في تسلط شهواته عليه، وتملك غرائزه له، ولكنه دونها، لأنها تؤدي رسالة هي خدمة الإنسان، وذاك ليس له رسالة في الحياة.

ويقول الباحثون الاجتماعيون أيضاً: دور حمل الرسالة هو نهوض الأمة وصعودها، ودور التخلي عن الرسالة هو دور الانحدار والهبوط. ولقد ظل المسلمون يصعدون برسالتهم حيناً من الدهر ثم تخلوا عنها شيئاً فشيئاً فعاشوا فترة يسيرون بقوة الدفعة الأولى، ثم كان دور الانحدار...

ليسأل الواحد منا نفسه: ما غرضنا من الحياة، وما رسالتنا؟

والجواب: أنا نعيش لأنفسنا وأغراضنا. إن الرسالة التي نقدمها رسالة قاصرة بتراء هزيلة، وإننا، نحن المربين، لا نخرج للناس رجالاً ولا نخرج أبطالاً مؤمنين حقاً، والأسباب عديدة، أولها وأكبرها نقص في أنفسنا، ويتبع هذا نقص مناهجنا ووسائلنا، ويلي ذلك الوسط الذي نعيش فيه الذي يطبعنا بطابعه وينفث فينا سمومه وضعفه ومخدراته.

لا بد أن تكون الرسالة مهيمنة على القلب وتغلب على النفس كلها...

ومثال ذلك: إنسان هيمن حب العلم على قلبه فهو يعكف عليه عكوفاً ينسيه نفسه ومن حوله، وينسيه طعامه وشرابه والملذات التي يطلبها الناس والمتع التي يفرط في السعي وراءها الكبار والصغار.

وفي تاريخ العلم أمثلة كثيرة لهذا النوع من العلماء، ولقد كان الرسل جميعاً من هؤلاء الذين غلبت على نفوسهم فكرة واحدة وهبوها حياتهم كلها، وكان المصلحون

الذين يتأسون سيرة الأنبياء من بعدهم من هذا النوع: كان صلاح الدين بن أيوب كالوالهة الثكلى فقدت وحيدها، يتململ في فراشه ويتقلب فيه ولا يجد النوم سبيلاً إلى جفنيه، كانت الفكرة التي غلبت على قلبه استرداد المسجد الأقصى وانتزاعه من أيدي الصليبيين.

كيف نربّي أبناءنا على حمل الرسالة:

يمتص الطفل المعاني التي يستمع إليها من والديه ويشاركهما في انفعالاتهما، وتترك آهات الأم وحسراتها أثراً كبيراً في نفسه، وهكذا تتكون المعاني الأولى في قلبه... ولا يستمع الطفل في البيئة الإسلامية اليوم من أبويه معاني البطولة والتضحية والجهاد وأعمال المسلمين في عصورهم الأولى: ولكن يسمع الآهات والحسرات في سبيل الشهادات العليا التي تجر وراءها النعم الرغيدة.

كان يجب أن يغرس حب هذه الرسالة في قلب الطفل منذ نعومة أظفاره وذلك حين يستمع إلى أبويه يحدثانه بأخبار الأبطال وسير الرجال كيف جاهدوا، وكيف آثروا الرسالة على كل متع الدنيا، وكيف أحبوا الاستشهاد في سبيل الله، وبذلوا الوسع لإدراكه، ولو كان الأمر كذلك؛ لكان للمسلمين شأن آخر في العالم كله.

وكما يتأثر الطفل بما يسمع من أمه وأبيه، يتأثر كذلك بما يسمع من أستاذه ومربيه، ويتأثر تأثراً قوياً بسلوك من حوله، وقد يعجب بأستاذه فيتقمص شخصيته ويتتبع خطاه، والمدرسة في مجتمعنا لا تختلف في الروح والجوهر عن المنزل كثيراً، وليس التنافس في المعاهد العلمية بالأعمال الطيبة والسير الحميدة والإنتاج العلمي الصحيح ولكن بمقدار ما يحفظ الطالب من العلم حفظاً يصدق عليه في الغالب أنه حفظ بدون وعي.

القائد أصدق من يحمل الرسالة:

الصفة الأولى للقيادة حمل الرسالة وقد امتلأ بها قلب القائد فكان أصدق من يحملها وأخلص من يمثلها، وينشأ عن ذلك صفات كثيرة نذكر منها ما يلي:

حامل الرسالة يتوجه وجهة واحدة، وتخضع غرائزه ودوافعه جميعها لرسالته، فهو يغضب ويخاف، ويحب أبناءه، ويجمع المال ويدخره، ويستعلي ويتواضع؛ ولكنه يغضب في سبيل رسالته ويخاف من أجلها، ويحب أبناءه إذا أعانوه على حمل رسالته، ويجمع المال لينفقه في سبيل رسالته، ويستعلي على أعداء رسالته ويتواضع لأصحابها. وبكلمة واحدة: أصبحت قوى النفس ودوافعها جميعها جنوداً طيعة خاضعة لقيادة واحدة، وهذا ما يسمى بوحدة النفس وخلوها من التنازع الداخلي، وسلامتها من أنواع الصراع النفسي، وفي مثل هذه الحال يندفع صاحب الرسالة إلى غايته أقوى اندفاع لا يعوقه صراع داخلي، ولا يقف في سبيله عقبة في الخارج.

ومثل هذا الإيمان لا يقر صاحبه ولا يستقر، ولا يعرف كلالاً ولا ملالاً، ولا يطلب راحة ولا هدوءاً، يقول غوستاف لوبون: إن من الخير أن أمثال هؤلاء قلة في العالم ولو كانوا كثيرين لأحدثوا في كل يوم انقلاباً في العالم.

صاحب الرسالة تتغير مقاييسه، فالولاء لمن يوالي رسالته، والعداء لمن يعاديها، والقرب ليس قرب النسب ولكنه القرب من الرسالة، وبذلك كان حمل الرسالة أقوى عامل في دعم روح الود والولاء بين أفراد الجماعة.

ثم إن حمل الرسالة يحتاج إلى غذاء دائم في الناحية الفكرية والوجدانية والعملية. ومن الأخطاء التي تعيش فيها الجامعات الإسلامية أن أبناءها لا يجدون من هذا الغذاء شيئاً ولا سيما الغذاء العملي.

يجب أن يجد الطالب في الجامعات الإسلامية جواً خاصاً يرتفع عن الأجواء العامة؛ لأن مهمة الجامعات أن تنعكس آثارها على المجتمعات العامة فترقى بها، وإذا ارتقى المجتمع عاد إلى الجامعات فزاد في الإنفاق عليها والسهر على إصلاح حالها، فعاد ذلك على المجتمع بدرجة أخرى من الرقي...

يجب أن يكون في الجامعات الإسلامية ليالٍ للعبادة والتهجد، وجلسات قرآنية تتلى فيها الآيات بنهم وتدبر، فتزيد المؤمنين إيماناً، وجلسات للتذكير بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم...

وبكلمة واحدة: يجب أن يكون للجامعات الإسلامية طابع خاص وجو خاص تعبق فيه المعاني السامية والمثل الإسلامية يذكَّر فيه الطلاب إذا نسوا، وينبهون إذا غفلوا، وينشأ لديهم إيمان دافع فعال محرك ليقدموا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله.

صاحب الرسالة لا يزحزح عن مبدئه: ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لذلك حين يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». وكذلك شأن عتاب الله لرسوله في قوله تعالى: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم).

وهذا المعنى ينبثق منه الصبر على الملمات، والثبات عند مواجهة العقبات، وهذا شأن القيادة تصبر على المصائب وتثبت في مواجهة الشدائد صبراً مقروناً بالأمل والثقة بنصر الله، والطمأنينة إلى تأييده، ويقترن كل هذا الشعور بالسعادة الكبرى. فصاحب الرسالة سعيد وإن كان يسام سوء العذاب، وهو راض مطمئن النفس وإن أحدق به الجاهلون وأحاط به المستهزئون.

وينبثق عن كل هذا أيضاً دراسة الموقف دراسة كاملة مستوعبة، والإحاطة بالمشكلات التي تعترض سبيل الرسالة ودراسة الوسائل التي تحقق أغراض الرسالة، واكتشاف طاقات الأعوان والأنصار، ومعرفة مقدرة كل منهم والمجالات التي يحسنون فيها، ووضع الأمور موضعها. إن معرفة الرجال أمر هام جداً؛ ولقد قال عمر بن الخطاب يثني على أبي بكر رضي الله عنهما: «رحم الله أبا بكر كان أعرف مني بالرجال»، قال هذه الكلمة عمر رضي الله عنه حين عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه عن القيادة فقاتل خالد جندياً، وفي معركة من المعارك فتح خالد قنسرين هو وثلة من أصحابه بإبداع حربي.

من صفات القيادة تربية روح حمل المسؤولية لدى أتباعهم:

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في شتى المناسبات يدرب أصحابه على حمل المسؤولية ليضطلعوا بأعباء القيادة من بعده، فكان يستشيرهم في كل مناسبة وكثيراً ما يعدل عن رأيه إلى رأيهم إذا وجد في رأيهم صواباً:

ففي غزوة أحد أقعد ببعض الصحابة إشاعة مقلقة، حينما نادى مناد بأن محمداً عليه الصلاة والسلام قد مات، وقد مر بهؤلاء أنس بن النضر فقال: ما يُقعدكم؟ قالوا: مات رسول الله، فقال لهم: قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ونزل بعد ذلك قوله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين). وكانت الآية الكريمة عتاباً أليماً للأصحاب الذين تخلوا عن حمل المسؤولية بعد موت القائد.

وفي غزوة بدر ترك عليه الصلاة والسلام رأيه لرأي الحباب بن المنذر حين قال له: أهذا منزل أنزلكه الله يا

رسول الله أم الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال الحباب: ما هذا بمنزل.

وفي غزوة الأحزاب يوشك عليه الصلاة والسلام أن يعقد صلحاً مع بني غطفان على ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا عنها، ولما استشار عليه الصلاة والسلام سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سألاه أهو وحي أم شيء يحبه عليه الصلاة والصلاة أم هو تدبير الحرب؟ فلما علما أن الأمر من تدبير الحرب، قالا: والله لا نعطيهم إلا السيف؛ فسرّه ذلك عليه الصلاة والسلام ورجع إلى رأيهم.

يحسن بالعالم والمدرس أن يعترفا بالخطأ إذا وقع منهما خطأ:

ومن المؤسف أن كثيراً ممن انتهت إليهم الرئاسة العلمية في مجتمعنا قد نسوا كثيراً من هذه المعاني وأخذوا بتربية أتباعهم على الغلو في تعظيمهم، وتأويل خطئهم وتفسير سلوكهم، وإن خالف القواعد الشرعية، بأن وراءه أسراراً وحكماً لا تدركها عقول الأتباع القاصرة، وبذلك ينتهي هؤلاء الأتباع إلى أن شيوخهم لا يخطئون لأنهم قد بلغوا الكمال.

وبهذه المناسبة أذكر ظاهرة تتعلق بالأساتذة المربين فإنّ أستاذاً في معهد التربية في القاهرة عام ١٩٤٧م وضع أمام طلابه المشكلة التالية:

أيهما أولى بالمدرس أن يعلن خطأه إذا وقع منه خطأ ويعترف به، أم يتفادى الموقف ويستر خطأه؟

وكان رأي الأستاذ أن يعترف المدرس بخطئه، إذا وقع منه ويعلنه بكل صراحة، وهذا هو الاتجاه الصحيح في رأيي.

إن الشيء الفطري الذي يمكن أن يقع كثيراً أن يفطن أحد الطلاب لأمر قد غفل عنه أستاذه، وأية عظمة في هذا؟ بل إنه لمدعاة إلى الثناء على الأستاذ أن يستطيع دفع طلابه إلى البحث والتفطن لما لم يفطن له.

ليس من الخير أن نعوّد طلابنا تلقي كل ما يلقى إليهم:

يسر كثيراً من المدرسين ذلك الطالب الهادئ الذي يتقبّل كل ما يلقى إليه ولا يعارض في شيء، ويسوؤهم أولئك الذين يكثرون من السؤال ويطلبون زيادة في الإيضاح. وليس من شك أن الطالب الذي يسأل للشغب وللظهور أمام رفاقه بمظهر المعترض هو طالب يحتاج إلى إصلاح، ولكن ليس من الخير أن نعود أبناءنا أن يتقبلوا كل ما يلقى دون سؤال أو استفهام. إن هذا المعنى فيه نمو الاستعداد للتقبل وضمور روح النقد لدى الطالب، وقد يكون الدافع إليه المداراة والمراءاة... يجب أن يحترم الطالب أستاذه ويدلي في الوقت نفسه بما يجول في خاطره من سؤال بأدب وصدق وإخلاص.

لقد انحرف المسلمون بكل أسف عن المعنى الذي ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه عليه: الجرأة في الحق وإعلانه والصدع به بصدق وإخلاص. وكان العهد الذي أخذ على الأصحاب في بيعة العقبة الكبرى أن يقولوا بالحق حيثما كانوا لا يخشون في الحق لومة لائم.

وحين كمت الأفواه وأصبح المسلم يخشى أن يقول كلمة الحق تودع من الأمة، وانتهينا اليوم إلى أحد رجلين: معارض وقح لا يريد الحق ولا يبغي الخير، أو موافق مراءٍ مُصانع يقول بلسانه ما لا يعتقد بقلبه.

أما الصنف الثالث الذي يفطن للحق، ويصدع به، ويلتزم الأدب والخلق في ذلك فقد أصبح نادراً جداً.

ألا من رغبة صادقة، وعزم حديد على تربية أجيالنا على قيم الإيمان وتحمّل المسؤولية ليكونوا قادة أحراراً، لا أتباعاً ولا عبيداً؟!.

السافرات الجدد

أحمد دعدوش

لا شك في أن السفور ليس بالظاهرة الجديدة، فموجات التفنن في الحجاب والتخلي عنه ما زالت تتجدد منذ سقوط الخلافة وانهيار هوية الأمة، وقد أسهب عالم الاجتماع العلماني علي الوردي في تحليل هذه الظاهرة خلال العقود الأولى من تشكل الدول العربية الحديثة في ظل الاستعمار المباشر، ثم استمراريتها في ما يسمى بدول الاستقلال، وهي دول لا تزال ترزح في رأيي تحت احتلال فكري أشد وطأة.

يمكن للعين المجردة في أي مجتمع عربي أن تميز بين المرأة التي تلتزم بالحجاب امتثالا لأمر الله وبين تلك التي تغطي رأسها تمسكا بالتقاليد أو خوفا من النقد والنبذ، وفي كل المجتمعات المحافظة التي تمتعت بشيء من الانفتاح نجد انحسارا مفاجئا لأغطية رؤوس آلاف أو ملايين النساء، حيث يبدأ بإظهار مقدمة الناصية لينتهي إلى السفور الكامل.

لكن موجة السفور الجديدة في ظل الربيع العربي تتمتع بمزايا خاصة، مما يجعلها مؤهلة لتمييز أهلها باسم «السافرات الجدد»، فهذا اللقب يشمل فئة من المثقفات اللاتي جعلن من السفور رسالة احتجاج، ونشرن صورهن لمرحلتي ما قبل اتخاذ كشف رؤوسهن وبعده، مشفوعة ببيانات إدانة للعائلة ومدرسات التربية الدينية والمجتمع لما مارسوه عليها من «ظلم وإكراه». وهناك فئة أخرى ممن لا يرغبن في الشهرة ولا يجرؤن على مواجهة المجتمع، فربما تكتفي إحداهن بالسفور في مكان دون آخر. كما نجد فئة ثالثة ممن كنّ يعبدن الله على حرف، فربما كانت إحداهن من أكثر الناس تدينا والتزاما ظاهريا بالشعائر في مجتمعها، ثم ساعدتها الهجرة والنزوح بدافع الحرب إلى الانخلاع عن البيئة كلها وعن دينها وأخلاقها، لتمارس الفجور بأقصى درجاته استرضاء للشيطان وحزبه.

غالبا ما يرافق هذه الظاهرة نفور نفسي من زوج أو أب ظالم، فيصبح السفور والفجور وربما الكفر بمثابة عقوبة لهم، ومع أن هذه القرارات الطفولية الحمقاء قد تُغضب العائلة فعلا لكنها قد تثير ضحك وسخرية الزوج السابق في حال الانفصال، أما إذا كانت بمثابة عقوبة

للمجتمع كله فهي لن تثير أسف المجتمع ولن تضحكه طالما أن المرأة المتمردة هنا لن تستطيع أن تبلغ رسالتها إلى ملايين المجتمع الذين تكتوي بحقدها عليهم.

وأياً كانت الدوافع، فإنها تنتهي حتما إلى قرارات انتحارية لا تثبت سوى ضعف المرأة وانهزامها النفسي، بل هي إعلان مباشر عن عجزها عن السماحة أولا وعن اختيار طريقة حكيمة للانتقام ثانيا، فهي تدمر نفسها بالحقد على من «ظلمها» ثم بالتمرد على خالقها قبل الخروج عن طاعة ذاك «الظالم».

وقد يرافق هذا السفور إصرار صاحبته على التمسك بأهداب الدين، فهي تعلن في كل مناسبة أنها لم تكشف رأسها إلا بعد اقتناع بأن الحجاب مجرد عادة فرضها الفحول من علماء الدين الأقدمين ورجال المجتمع الذكوري، وربما تبالغ إحداهن بإظهار تدينها بعد السفور أكثر من ذي قبل لإثبات أصالة السفور في هذا الدين الخالي من الذكورية. والأغرب من ذلك أن تنخرط هذه الفئة في الدفاع عن المحجبات أنفسهن، ولا أظن أن هذا الدفاع نابع عن تمسكهن بحرية العقيدة والتعبير والملبس بل ربما لإظهار عدم تفلتهن من الدين وأهله بالرغم من سفورهن المفاجئ.

علاوة على ما سبق، تقدم بعض السافرات الجدد مبررات أكثر إدهاشا، فتزعم إحداهن أن الحجاب أمر عظيم لا يليق بأمثالها أن تدنسه برأسها العاصي، وقد تقول لك وهي تنفخ دخان أرجيلتها إنها تدعو الله أن يهديها لتصبح أهلا لارتداء ذاك الغطاء المقدس. وهذا يذكرني بحوار تلفزيوني دُعيت إليه على فضائية علمانية عربية، حيث فاجأتني مديرة الحوار بصور لمحجبات كاسيات عاريات، أرادت من خلالهن أن تدفعني لمطالبة النساء باختيار أحد أمرين: إما الحجاب الملتزم بأخلاق أمهات المؤمنين أو السفور بحجة عدم الإساءة للدين، غير أني طالبت على الهواء بقلب الطاولة على تلبيس إبليس المغرق في الحماقة، وعجبت من هذه العقلية التي تريد أن تجعل الحجاب مجرد لباس ديني تتميز به أقلية من المتدينات كما يتميز المشايخ من الرجال بالعباءة والعمامة، بينما يُعفى العوام من كل هذه المظاهر الدينية التي يراد «تنزيهها» عن ذنوبهم!

«السافرات الجدد» مجرد راكبات للموجة كغيرهن، وجدن في أجواء الحرية الجديدة طريقة ما للربط بين التحرر من الطغيان والتحرر من أوامر الله، فسقطن في عبودية الشيطان. وعندما تعجز إحداهن عن تقديم مبررات تريح نفسها المتعبة وتشبع ذاتها بالاحترام الداخلي؛ فمن العبث إذن أن تتوقع منا احترام خياراتها المغرقة في السذاجة والعبث.

سَلْوا عنا الزَّمان

رأفت عبيد أبو سلمى

تلوحُ لنا المكارهُ والبلاءُ ... فتخجلُ إنْ بدا منّا الإباءُ
سمونا في الحياة دعاةَ حقٍّ ... ودَاءُ الظلم نحن له دَواءُ
غزونا خوفنا فارتدَّ عنا ... كسيفًا، إذ نما فينا الرَّجاءُ
يمينًا إنَّ للأحرار نصرًا ... قريبًا إنَّ مَوعدَهُ الفداءُ
سيطوي ليلَ أمَّتنا صباحٌ ... ليشرقَ في دياجيها الضِّياءُ
لتسقِيَ أرضَها عزًا ومجدًا ... شرايينٌ بها غلت الدِّماءُ
أخفنا الموتَ لمْ نعبأ بظلم ... وأهلُ الظلم بالخسران باؤوا
بَعَثنا أمةَ الأحرار روحًا ... يعانقُ وجهَها الأسنى بقاءُ
سَلوا عنا الزمانَ فما انحنينا ... لطاغيةٍ وإن عظمَ البلاءُ
أبَينا العيشَ في ساح الدَّنايا ... وعَينُ الكفر ذلٌّ وانحناءُ
سلوا عنا رجالا أو نساءً ... على هِمَمِ الرجال لنا نساءُ
وكم يعلو الفتى ظهرَ المنايا ... ويشربُ كأسَها فيه الرواءُ
سلوا عنا الزمانَ إذا انتشينا ... بمرٍّ فيهِ حَلاهُ العناءُ
عطاءُ الحرِّ للأوطان نهرٌ ... يفيضُ على شواطئهِ العطاءُ
فلا تعجبْ إذا ما الحرُّ أعطى ... لدِّين الله حاديهِ الجزاءُ
أبى مِن فوق مشنقةٍ فأصغَتْ ... له أرضٌ وردَّدت السَّماءُ
يدمدمُ كالأسودِ وإنْ رَموهُ ... بشرٍّ واستقرَّ بهمْ غباءُ
تراهمْ كالظباء تهيمُ خوفًا ... وأشجعُ منهمُ تبدو الظباءُ
يتمتمُ بالدُّعاء وإنْ تجلى ... لهمْ أضناهمُ هذا الدعاءُ
أبانوا عن أسًى بادٍ عليهم ... ولكنْ في الأسى انبلجَ الرِّياءُ
سلوا عنا فإنْ يكُ ماتَ حُرٌّ ... سيحيا ثمَّ للدنيا الفناءُ
هي الحريةُ الحمراءُ نادتْ ... ومِلءَ قلوبنا بَلغ النداءُ
يُسَرُّ فؤادُها إنْ نحنُ عِشنا ... كرامًا، أو فمثوانا ارتقاءُ
سلوا عنا الحياة بفرحتيها ... يهون لأجْل عينيها الفداءُ

سيعود عصر النور
رغم أنوفهم